جمعية صيانة جزيرة جربة

أعـــلام مـــن جزيـــرة جربـــة

مجموعة المحاضرات التي القيت على
منبر جمعية صيانة جزيرة جربة.

جمعية صيانة جزيرة جربة

أعـــلام مـــن جزيـــرة جربـــة

مجموعة المحاضرات التي ألقيت على منبر
جمعية صيانة جزيرة جربة.

تقديـــــــم

الحمد للّه الّذي يتم بعونه ورعايته نشر هذه المجموعة من المداخلات، التي قدمت في نطاق الأنشطة التي تقيمها جمعية صيانة الجزيرة، تحت عنوان «لقاءات الصيانة» وعلى منبر اللجنة الثقافية بأجيم بمناسبة ملتقى الشيخ سليمان الجادوي.

ونحن إذ نشرع اليوم في نشر هذه المداخلات في نطاق برنامج إحياء ذكرى مرور 20 سنة على ملتقى جانفي 1975، نسأل اللّه تعالى أن يوفقنا لمواصلة هذه التظاهرة المتميّزة والقارة ضمن أنشطة الجمعيّة، حيث انطلقت منذ بداية سنة 1985، وشملت محاور متعدّدة تتعلّق بمختلف الميادين الحياتية بجزيرة جربة. كما نسأل اللّه أيضا أن ييسّر مواصلة النشر، حيث اقتصرنا هذه المرة على محورين اثنين، يتعلّق الأوّل بالتعريف ببعض رجالات الجزيرة ويشمل الثاني مداخلات متفرّقة أدرجناها ضمن محور عام يتعلق بتاريخ وتراث الجزيرة.

وحريّ بنا أن ننبه من ناحية أخرى السادة القراء إلى أننا لم ننشر هذه المرة مجمل ما تجمّع لدينا من المداخلات، كما أن اللقاءات التي أمكن حتى اليوم تنظيمها لم تشمل كافة رجالات الجزيرة الجديرين بالتعريف، ولا كافة المواضيع الحريّة بالدّرس والبيان، وهو ما دعانا في مستهل هذا

التقديم إلى الدّعوة بأن يوفقنا الله إلى مواصلة عقد «لقاءات الصيانة» ومواصلة نشر ما نجمعه بمناسبتها من مداخلات، حتى نعرّف على الوجه الأكمل بمساهمة جزيرتنا في إرساء وتدعيم الحركة الثقافية وإقامة صرح الحضارة العربيّة الإسلاميّة في ربوع بلادنا وإيفاء أعلام الجربيين حقهم علينا بالتعريف بهم وبالإشادة بما بذلوه من جهد في هذا السبيل.

ونحن إذ نشرع اليوم في نشر هذه الحصيلة الأولى من حصاد «لقاءات الصيانة» وقد أضفنا إليها مختلف الدراسات والمداخلات التي ألقيت في نطاق ملتقى الشيخ سليمان الجادوي بأجيم بإشراف اللجنة الثقافية المحليّة، لا يفوتنا أن نتوجه بأصدق مشاعر الشكر والامتنان إلى من ساعدنا على إقامة هذه الأنشطة وعلى ضمان استمرارها، كما نتوجه بنفس المشاعر إلى من قام بهذه المداخلات وسمح بنشرها، وإلى من ساعد على النشر بفضل ما قدم للجمعية من سند مالي، وهم كثر بحيث لا يمكن ذكرهم بالتحديد، على أنه لا مناص من الإشادة بفضل الأخ والصديق المنصف بن جمعة الرئيس المدير العام للشركة التونسية لفنون الرّسم، الذي ساعدنا على إصدار هذا الكتاب.

فريد القاضي
رئيس جمعية صيانة الجزيرة
جربة في 30 ماي 1995

أبو العباس أحمد الصقلّي
قائد بحري من جزيرة جربة

تمهيد :

كان من بين من لمعت أسماؤهم في البلاد النورمانيّة في جزيرة صقلية في منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي رجل من جزيرة جربة، بخليج قابس، كان قد أسره النورمان في عهد رجار الثاني (حكم 1111–1154م) إما عند احتلالهم الجزيرة سنة 529هـ/1135م، وإما في إحدى غاراتهم على الجزيرة قبيل ذلك التاريخ، «فتنصّر»، وأعتقه الملك النورمانيّة وليام الأول (حكم 1154–1166م)، وشغل عددا من المناصب السامية في البلاد النورماني حيث عرف باسم القائد بيترو / بطرس (Gaito Pietro) وعهدت إليه قيادة الأسطول. وكان قد تقلّد هذا المنصب من قبله مسلم آخر، أصله من المهدية، هو فليب المهدوي، ويذكر الرحالة الأندلسي ابن جبير، (وقد مرّ بصقلية عام 580هـ / 1185م في طريق عودته من الحج) بأن ملوك النورمان في صقلية كانوا يعتمدون على المسلمين في إدارتهم، وكثيرا من وزرائهم وحجابهم من الفتيان «وكلهم، أو أكثرهم، كاتم إيمانهم،متمسكا بشريعة الإسلام» (1).

كان النورمان قد بسطوا سيطرتهم على مدن ساحل إفريقية – (من طرابلس الغرب إلى عنابة) نحو من اثنتي

(1) ابن جبير، محمد : رحلة ابن جبير، بيروت 1968، ص 267.

عشر سنة، إلى أن أقدم الموحدون، وأجلوهم من آخر هذه المدن وهي المهدية، سنة 555هـ / 1160م. وقد دفع مسلمو صقلية ثمن انتصار الموحدين على النورمان في المهدية، إذ جرّدوا على الأثر من السلاح، ممّا جعلهم تحت رحمة أعدائهم من الإقطاعيين والمستوطنين اللمبارد أثناء الثورة العارمة التي قام بها هؤلاء ضد الملك وليام الأول سنة 1161م والتي ذهب ضحيتها كبير وزرائه مايو (Maio) وعدد كبير من فتيان البلاط المسلمين.

حصار المهدية :

وفي هذه الفترة، وإثر غارة لأسطول النورماني على الجزائر الشرقية (جزر البليار)، وكان يحكمها بنو غانية المرابطون، طلب إلى مقدم الأسطول القائد بطرس التوجه فورا لنجدة حامية النورمان بالمهدية أثناء حصار الموحدين للمدينة. ولما أخفق في إنقاذ المهدية، وعاد الأسطول خائبا إلى بلرم، اتهمه خصومه من النبلاء بالخيانة وبالتواطئ مع الموحدين. فالمؤرخ النورماني هوجو فلمانذو – المعروف بتعصبه – يقول : (إن بطرس شأنه شأن بقية فتيان البلاط نصراني إسما وزيا، ولكنه مسلم في الباطن، وعلى ذلك فإن انسحابه من المهدية لم يكن بسبب العجز أو الجبن، وإنما كان نتيجة لخيانة سافرة. أما غيره من المؤرخين فلا يشيرون إلى أية خيانة من جانب القائد بطرس. فالتجاني – نقلا عن شاهد عيان هو ابن شداد – يقول إن الأسطول النورماني قد تفرّق شمله بسبب عاصفة، وهاجمته سفن المسلمين قبل أن يكون لديه الوقت الكافي للتجمع ثانية (2). ويبدو أن هذا، أو شيئا من هذا القبيل هو ما حدث بالفعل، إذ لا نجد ذكرا لأي إجراء تأديبي اتخذ في حق القائد بطرس لدى عودته إلى بلرم، بل إنه على العكس من ذلك ازدادت حظوته لدى الملك،

(2) التجاني، عبد الله : رحلة التجاني، تونس 1958، ص 347–349. Norwich, J.J., The Kingdom in the Sun London 1979, p. 212

فرقّي وشغل مناصب سياسية سامية لعدة سنوات.

لعلّ السبب الحقيقي لتخلّي النورمان عن مواقعهم على ساحل إفريقية هو ما كانوا يواجهونه من مشاكل داخلية في صقلية، وأخطار كانت تتهدّدهم من جانب الروم البيزنطيين والإمبراطور الألماني فردريك بربروسا، وقوات الباب، فلم تتوفّر لديهم الموارد الكافية لمواجهة هذه الأخطار، والتصدّي في الوقت ذاته لدولة الموحدين الفتيّة، ومحاولة إخضاع شعب بأكمله في إفريقية.

وبعد أن قمع الملك وليام الأول الثورة الدّامية التي قام بها النبلاء عام 1161م، عهد بإدارة مملكة صقلية إلى ثلاثة أشخاص، كان في طليعتهم القائد بطرس الذي رقيّ ليشغل منصب سام هو منصب الحاجب (Chamberlain) أو كبير الوزراء. وبعد وفاة الملك عام 1166م. تولّت أرملته الملكة مارجريت الوصاية على وليّ العهد ابنهما الصغير وليام الثاني (وكان في الثانية عشرة من عمره) يعاونها ثلاثة رجال، كان أحدهم القائد بطرس الذي أبدى كفاءة إدارية وإخلاصا للملك وأسرته. وقد حظي بثقة الملكة مارجريت التي كانت تخشى أطماع الآخرين وتحرص على الاحتفاظ بالملك لابنها. فقدمت بطرس على زميليه رتشارد بالمر وماثيو صاحب أجلّو (Agello). فازداد نشاط خصوم القائد بطرس حيث لم يرق لهم وضع إدارة مملكة صقلية – وكانت من أغنى ممالك أوروبا – في يدي فتى مسلم. وتزعّم الحركة المناوئة للقائد بطرس أحد أقارب الملكة، واسمه جلبرت (Gilbert)، الذي كان في أواخر أيام الملك وليام الأول قد ولّى كونتية بمقاطعة بولية (Apulia) بجنوب إيطاليا، ولكن ما إن علم بوفاة الملك حتى عاد مسرعا إلى «بلرم» حيث أصبح زعيم المعارضة للقائد بطرس. فأخذ يحيك المؤامرات لاغتياله – كما حدث من قبل لكبير الوزراء «مايو» – ويشكو علنا من أن مملكة صقليّة يتولّى تسيير أمورها العبيد والخصيان،

وظلّ يحثّ الملكة مارجريت على تعيينه هو كبير وزرائها في مكان بطرس (3).

وكان القائد بطرس – من طريق أعوانه – على علم بما كان يدبّر ضده، فبادر أولا إلى تعزيز حرسه الخاص، إلاّ أنه وهو يذكر مصير سلفه «مايو»، وما حدث لقائد بحري مسلم من قبله وهو فليب المهدوي (4) (أعدم سنة 548هـ / 1153م)، فإنه عقد العزم على الفرار والعودة إلى موطنه الأصلي بإفريقية، فتظاهر بأنه سينتقل إلى قصر آخر شيّده في حي الكمونية ببلرم وكان قد جهّز مركبا في الميناء، فخرج في ليلة ظلماء صحبة بعض رفاقه حاملا معه كمية وفيرة من المال، واستقل المركب عائدا إلى إفريقية. ولدى وصوله إلى تونس، استردّ اسمه الأصلي «أحمد» وأظهر إسلامه، واستأنف مزاولة مهنته البحرية الأصلية، إذ نجده قائدا لامعا لأسطول الموحدين نحوا من عشرين عاما في عهد السلطان يوسف بن عبد المؤمن وعهد ابنه يعقوب المنصور، وأبلى في مواجهة النصارى بحرا في شبه جزيرة إيبرية (5)

لقد سبّب فرار القائد بطرس إحراجا شديدا للملكة مارجريت التي نفت ما زعم من أن القائد بطرس قد فرّ ببعض الكنوز الملكية، أما ابن عمها جلبرت فإنه تساءل : «ما الذي يمكن توقّعه من رجل مسلم ؟ ألم يخن بلاده في المهدية قبل سبع سنوات ؟ إنما الغريب في الأمر أنه لم يجلب منذ زمن أصدقاءه الموحدين إلى القصر للفرار ببقية الكنوز الملكية، بل وبالملك نفسه» (6). أما ريتشارد صاحب «موليس» (Molise) – وكان حاضرا في المجلس – فإنه لم يستطع السكوت على ما سمع، فانبرى للدفاع عن راعيه

(3) Norwich, pp. 254-255
(4) ابن الأثير، علي : الكامل في التاريخ، الجزء التاسع، بيروت 1980، ص 42.
(5) Norwich, p. 256
(6) Norwich, p. 256

السابق بطرس، مشيرا إلى أن بطرس لم يكن عبدا، إذ أن الملك وليام الأول كان قد أعتقه رسميا، وأن رحيله كان فقط بسبب دسائس جلبرت ومؤامراته ضده. مضيفا بأنه على استعداد لتسوية الأمر مع من ينعت بطرس بالخيانة بدعوته إلى المبارزة (7). وقد عهدت الملكة إلى ريتشارد هذا بأن يخلف بطرس وزيرا أولا للمملكة.

يتحدث ابن خلدون عن أبي العباس الصقلي فيقول إنه من كتامة، وفيهم بجزيرة جربة سدويكش وصدغيان من بطونهم (8)، ويقول في (المقدمة) (9) إنه «لما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة (القرن الثاني عشر للميلاد)، وملكوا العدوتين (المغرب والأندلس) أقاموا خطة الأسطول على أتمّ ما عرف... وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي، أصله من صدغيان الموطّنين بجزيرة جربة من سدويكش، أسرّه النصارى من سواحلها وربي عندهم، واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه، ثم هلك وولي ابنه، فأسخطه ببعض النزاعات، وخشي على نفسه، ولحق بتونس ونزل على السيد بها (عبد الله بن عبد المؤمن) من بني عبد المؤمن وأجاز إلى مراكش، فتلقّاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة وأجزل الصلة، وقلّده أمر أساطيله، فجلّى في جهاد أمم النصرانية، وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين. وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدنا».

لقد تخلّى نورمان صقلية نهائيا عن محاولة استرداد ما فقده من المواقع في شمال إفريقيا، إذ أن الموحدين كانوا في أوج قوتهم، وبفضل قائد أسطولهم المحنّك أحمد الصقلي

(7) نفسه، ص 257.
(8) ابن خلدون، عبد الرحمان : كتاب العبر، المجلد السادس، بيروت 1959، ص 848.
(9) ابن خلدون : المقدمة، القاهرة (د.ت.)، ص 255.

أصبح لديهم أسطول كان بمقدوره التصدي لأسطول النورمان.

النشاط البحري للموحدين :

قام أسطول الموحدين في عهدي يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور بدور مهم في العمليات الحربية في شبه جزيرة إيبرية والجزائر الشرقية وشمال إفريقيا متخذا من سبتة وإشبيلية قاعدتين رئيسيتين. وعلى مدى عشرين عاما كان لقائد الأسطول أحمد الصقلي دور فعّال في إنشاء قطع الأسطول وتجهيزها وتدريب رجال الأسطول، وفي قيادة الأسطول من سبتة ثم من إشبيلية. ويلاحظ بأن القيادة الاسمية لأسطول الموحدين كانت تسند إلى أشياخ الموحدين أو – في حالة محمد بن مردنيش – لأسباب سياسية، وأما أبو العباس أحمد الصقلي فقد ولي منصب القيادة بفضل خبرته وكفاءته في قيادة الأساطيل، وهو الوحيد الذي يرد اسمه في المصادر مسبوقا بلفظ «القائد». وكان دون شك سيكون له دور كبير لو استمر النزاع بين الموحدين ومملكة صقلية النورمانية نظرا لمعرفته عن كثب بالأوضاع في صقلية، تماما كما استفاد جورج الأنطاكي من قبل في حملات النورمان على سواحل إفريقية، مما كان قد اكتسبه من خبرة ومعلومات أثناء خدمته في بلاط بني زيري في المهدية. إلاّ أن انشغال النورمان في الداخل، وفي مواجهة أخطار خارجية تمثّلت في البيزنطيين والإمبراطورية الألمانية، وانشغال الموحدين في الجهاد في الأندلس وفي مطاردة بني غانية في الشمال الإفريقي كان من شأنهما أن عقد الملك النورماني وليام الثاني سنة 576هـ/1181م معاهدة سلم مع السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وهي المعاهدة التي أشار إليها الرحالة ابن جبير حينما علّق على تجهيز ملك النورمان لأسطول كبير مستبعدا أن يكون مقصده إفريقية «ناكثا» لعهده في السلم، لأنه مظهر للوفاء

بالعهد» (10).

ونورد فيما يلي عرضا للنشاط البحري لأساطيل الموحدين من عام 576/1180 إلى عام 586/1191 ولدور القائد أحمد الصقلي فيه :

في سنة 577/1181، خرج أسطول سبتة وعلى رأسه عبد الله بن جامع «وخرج القائد أبو العباس الصقلي من إشبيلية بأساطيلها، واجتمعوا جميعا بجزيرة قادس... فنهضوا جميعهم إلى جهة ثلب، فالتقوا بأسطول أهل أشبونة بالموضع الذي أسر فيه غانم بن مردنيش في البحر وعكس (هزم) في المنتصف من محرم من العام الفارط (576هـ/11 يونية 1180م)، فالتقوا الآن في الخامس عشر من محرم أيضا، (577هـ/31 مايو 1181م)، فنصر الله المسلمين في هذا اليوم نصرا مؤزرا... وأسر منهم (البرتغاليين) نحو الألف وثماني مائة... وأخذت لهم من القطائع نحو العشرين مع أسلابهم وأسلحتهم... وبادر القائدان المذكوران ابن جامع والصقلي بغنيمتهما من الأسرى إلى أمير المؤمنين (يوسف بن عبد المؤمن)، فأعطى منهم البعض في فداء غانم بن مردنيش» (11).

وفي الغزوة الكبرى التي قادها السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن لاسترداد شنترين في صيف عام 580هـ/1184م «برز أسطوله على الأشبونة، وحاصرها عشرين يوما» (12)، ولا شك في أن الصقلي – قائد أسطول اشبيلية – كان على رأس هذا الأسطول.

استولى علي بن غانية، صاحب ميورقة، على مدينة

(10) رحلة إبن جبير، ص 277.
(11) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب (قسم الموحدين)، الدار البيضاء 1985، ص 145.
(12) العبري محمد بن عبد المنعم : كتاب الروض المعطار، بيروت 1975، ص 346.

بجاية في 6 شعبان سنة 580 هـ/13 نوفمبر 1184م منتهزا فرصة وفاة السلطان أبي يعقوب إثر غزاة شنترين، مؤملا في إحياء دولة المرابطين في شمال إفريقيا، إلاّ أن الموحدين شنّوا هجوما مضادا، برا وبحرا - واستردوا بجاية في صفر سنة 581هـ/مايو 1185م، وكان للأسطول الفضل في ذلك. يقول ابن خلدون : «وتقدّم القائد أحمد الصقلي بأسطوله إلى بجاية فملكها» (13). ويضيف ابن عذاري بأن القائد أبا العباس الصقلي تقدّم «بقطعة واحدة مع بعض أهل البلد (بجاية)، ودسّوا لهم كتبا بما وراءهم من الأسطول والجيوش الواصلة، فلما وصل الأسطول إلى بجاية ضجّت العامة، وفتحت الأبواب» (14) - أي أن الصقلي مهّد لاسترداد بجاية بمداخلة أهلها، ونجح في أخذ المدينة.

وتمهيدا لجواز السلطان يعقوب المنصور إلى الأندلس من برّ العدوة للتصدي لغارات النصارى عام 586هـ/1187م، فإن السلطان «قدّم القائد أبا العباس الصقلي إلى طريق في ثلاث عشرة قطعة» (15)، وفي أواخر العام ذاته، «وصل إلى الحضرة (مراكش) 150 من أسارى الروم، كان قد أسرهم القائد الصقلي حين عكس أجفانهم بساحل بحر اشبيلية» (16).

وفي السنة ذاتها (583هـ/1187) «كانت حركة القائد أبي العباس الصقلي بالأساطيل وهجموا على يابسة (إحدى الجزائر الشرقية) ودخلوها واستولوا عليها، وقبضوا على ابن نجاح، القائد المايورقي الذي هرب من ابن غانية للموحدين، ثم نكث عليهم، وقد كان خدع أهل يابسة ودخلها» (17).

(13) كتاب العبر، 6/ص 213.
(14) ابن عذاري المراكشي، ص 178.
(15) ابن عذاري المراكشي، ص 171.
(16) نفسه، ص 174.
(17) نفسه، ص 197.

وفي شهر أبريل 1190م، زحف يعقوب المنصور من إشبيلية قاصدا غرب الأندلس حيث كانت قد اشتدت وطأة هجمات ملك البرتغال، فحاصر المنصور ثغر قصر أبي داني (Alcacer do Sol) - إلى الجنوب من لشبونة - «إلى أن وصلت الأجفان البحرية بالعدد الحربية» (18). وتمثّلت هذه العدد لدك أسوار الحصن في أربعة عشر منجنيقا، فاستسلمت حامية الحصن من فرسان «سانتياجو» إثر هجوم مركّز شنّه غزاة البر والبحر في 15 جمادي الآخرة 586هـ/20 يولية 1190 ثم عرّج المنصور على «ثلب» وحاصرها حصارا شديدا، ورمى أسوارها كذلك بالمنجنيق، فاستسلمت حاميتها في 15 جمادي الآخرة 587هـ/10 يولية 1191م، وقد كان للأسطول دوره في استرداد قصر ابن داني و «ثلب» إذ نقل للمحاصرين المجانيق وآلات نقب الأسوار، كما ساهم رجال الأسطول كذلك في الهجوم على المعقلية. ومن الطبيعي أن يكون ذلك الأسطول في مياه غرب الأندلس بقيادة أبي العباس الصقلي، قائد أسطول إشبيلية، ولعلّه تجاوز السبعين من عمره آنذاك. ولا يرد ذكر اسم أبي العباس بعد ذلك في المصادر المتوفرة لدينا، فلا تعرف سنة أو مكان وفاته، ولعلّ الأجل وافاه في إشبيلية حيث كان مثواه الأخير.

أمين توفيق الطيبي
ملتقى جمعية صيانة جزيرة جربة
(28-29 جانفي 1994)

(18) نفسه، ص 210.
(19) نفسه، ص 206، 211.
Lomax, D.W. The Reconquest of Spain, Longmon, U.S.A. 1978, p. 114.

أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرّادي

المقدّمـــة :

استجابة لدعوة من جمعية صيانة جزيرة جربة، قمت بإعداد هذه المداخلة حول «أبي القاسم البرّادي» على هامش الندوة التي عقدتها بمناسبة جلستها العامة السنوية أيام 28 و 29 جانفي 1994 تحت عنوان «أعلام من الجزيرة».

اخترت البرّادي لأنه يمتاز بروح تجديدية تأليفية ولاهتمـام بعـض الأساتـذة أمثـال : د. علـي يحيـى معمر ود. عمّار الطالبي ود. الحبيب الجنحاني ود. سالم العدالي والمستشرقين أمثال : لويسكي وشاخت وموتيلانسكي بمؤلفات البرّادي. وكذلك رغبة مني في إحياء التراث الجربي والمساهمة في إثراء الحركة الثقافية بالجزيرة.

1 - كيف كانت الأوضاع في عهده ؟

أ - الوضع الطبيعي أو الجغرافي

ب - الوضع السياسي

ج - الوضع الاقتصادي

د - الوضع الاجتماعي

هـ - الوضع الثقافي والعلمي

2 - أطوار حياته :

من هو البرّادي ؟ مولده - نشأته - تعلمه

3 - الحياة العلمية لدى البرّادي

1) منهجه وخصائصه

2) تآليفه : التعريف بها

أ - الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات

ب - رسالة تآليف الإباضية

ج - البحث الصادق والاستكشاف عن حقائق معاني كتاب العدل والإنصاف

د - رسالة الحقائق

هـ - شفاء الحمائم في شرح بعض الدعائم

و - جواب أهل الخلاف

ز - الأجوبـــــة

4 - الخاتمـة

1 - كيف كانت الأوضاع في عهد البرادي ؟

أ - الوضع الجغرافي :

لقد نشأ البرادي في 3 مناطق تركت أثرها في حياته هي :

1 - جبـل دمّـر
2 - جزيرة جربة
3 - جبل نفوسة

المنطقة الأولى :

جبل دمر جزء من سلسلة الجبال الممتدة من المحيط الأطلسي نحو المشرق عبر جنوب تونس وليبيا تحدّه منطقة

غُمراسن شرقا وجبال مطماطة شمالا وسهول نفزاوة غربا وفيافي الصحراء جنوبا (1).

* واسم دمّر أطلق على مواطن تسكنها بعض بطون بني دمر، فنقل اسم القبيلة إلى الموضع الذي اتخذته مقرا ويؤكد ما ذهب إليه ابن عذاري في البيان (2) على أن بني دمّر من زناتة أحد فروع نفزاوة أصلهم عرب وإنما تبربروا بمجاورتهم للبربر ومخالطتهم (3).

ومن الأسماء التي تطلق على جبل دمّر جبل الحوايا (4) أما الاسم الإداري فهو بني خداش. وينفرد أبناؤه بإطلاق اسم دمّر على منطقة أثرية شمال القرية وهي آثار لقصر قديم به معصرة عتيقة تحت الأرض ومسجد تحت الأرض كذلك وبقايا مسجد مبني على سطح الأرض ومساكن حضرية متعددة تمتاز بالإشراف على كلّ المسالك والمنافذ، فوق هضاب تشرف على سهل الجفارة وينتصب فوقها غربا جبل شاهق عرف باسم «مزلزل» يرتفع حوالي ألف متر، بقمته قصر قديم ونفق فسيح قد يكون ممرا تحت الأرض ومكان تعبّد واختفاء في ساعات الخطر وهو بداية سلسلة جبال متداخلة في اتجاه الغرب والجنوب ثمّ تنحرف متجهة نحو غمراسن وقصر الحدادة شرقا (5).

أمّا المنطقة الثانية التي عاش فيها البرادي فهي جربة. وجربة جزيرة في البحر الأبيض المتوسط اعتبرها إبن خلدون من أعظم الجزر خطرا وأشهرها ذكرا، افتتحها رويفع بن ثابت الأنصاري سنة 47 هـ (6).

---

(1) ابن خلدون المقدمة ص 103.
(2) المغرب ج 1 ص 283.
(3) العدالي – البرادي ص 3.
(4) محمد بوراس – مؤنس الأحبة ص 46.
(5) البرادي – ص 4 سالم العدّالي.
(6) ابن خلدون – كتاب العبر ج 6 ص 373.

والمنطقة الثالثة جبل نفوسة : هو جبل عظيم من أعمال طرابلس في وسطه النخيل (7).

ب - الوضع السياسي :

يثبت الأستاذ علي يحيى معمر في كتابه (8) أن الفترة التي كان فيها البرّادي كانت من أحرج الفترات التي مرّت على جبل دمّر والجنوب التونسي كله عصبية من هيبة وحكم مستبد، ضعف عن حكم الناس بالشرع استند على إيقاظ الفتن بين طوائف الأمة وتوسيع شقة الخلاف بين الناس وتسليط الذين لا يخشون الله ولا يتقوه، على غيرهم ومساعدتهم على العدوان ليتسنى لهم جمع الأموال التي يطالبونها بكل إلحاح وباستمرار.

وكان من نتائج الاضطرابات انتشار المذهب المالكي وتقلص المذهب الأباضي تدريجيا إذ لم يمرّ عليه قرن واحد في البلاد التونسية لم توجه إليه أعنف الضربات، وقد كانت القوى في القرون الأولى متعادلة ولكن ما إن أقدمت الدولة الصنهاجية على تخريب قلعة بني درجين بالجريد حتى أخذت الأباضية تتقلص شيئا فشيئا حتى انقرضت نهائيا باستثناء جربة وجبل نفوسة وجنوب الجزائر.

ج - الوضع الاقتصادي :

كان الوضع الاقتصادي في عهد البرّادي بدمّر متواضعا وبجربة وجبل نفوسة مزدهرا، ويعود ذلك إلى الموقع الطبيعي وطبيعة التضاريس وضيق دائرة التعامل البشري بدمّر وإلى قوة الإنتاج وكثافة السكّان وازدهار العمران وتعدّد الحاجات وتوالد الطلبات وتنوّع المعاملات بجربة وجبل نفوسة.

---

(7) الحشائشي - جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ص 58

(8) الإباضية في موكب التاريخ ج 3 ص 152.

- **الصناعة** مستمدة من الحيوانات والنباتات ومواد الطبيعة الجافة. ازدهرت صناعة الملابس الصوفية والوبرية والجلدية تبعا لحاجات المجتمع، كما ازدهرت صناعة المرافق الفلاحية والمنزلية. يشير البرادي إلى بعض الصناعات التي افتتن بها أهل عصره مثل العمائم الزرق والفراء الموشاة والثياب المذيلة المطولة والخيل المسوّمة والبرانيس الواسعي الأكتاف (9)، كما ازدهرت صناعة النقش والأواني من الأحجار والطين والصلصال وحفر الآبار والمساكن في باطن الأرض وعلى سطحها.

د - الوضع الاجتماعي :

قويت روح النقد الاجتماعي، من ذلك أنّ البرّادي حينما استقرّ بجربة أخذ يدرس ويفتي ويفصل المشاكل ويقوم بالأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويندّد بالظالمين والمنحرفين كافح الباطل باليد واللسان خاصة بعد ما تقلّد مسؤولية مجلس العزابة إثر وفاة شيخه أبي البقاء يعيش الزواغي الجربي سنة 750 هـ

وتذمّر البرّادي من فساد الزمان وكثرة العدوان وهيجان الفتن واستضعاف الحق وانتصار الباطل وانقراض العلماء وذهاب العلم ودروسه وعموم الجهل وكثرة الغدر وقلة الطمأنينة وارتفاع الأمانة وقلة الثقة.

ذكر البرّادي في كتابه «البحث الصادق والإستكشاف عن حقائق العدل والإنصاف» (10) حكاية عن أبي يعقوب الورجلاني، أنه في آخر عمره كانت الهزاهز والمحن والبلاء العظيم من بني غانية في جميع أهل الدعوة.

كان لهذه الاضطرابات السياسية والاجتماعية عظيم الأثر على نفسية البرّادي فجعلته شديد الحذر متحديا كل

(9) علي يحيى معمر : الأباضية في موكب التاريخ ج 3 أسرة البرّادي.
(10) مخطوط بالمكتبة البارونية رقم 74 ص 182.

الكفرة والفجرة. وبالجملة فإن البرّادي لا يكاد يترك أثرا من آثاره العلمية دون أن يضمنه إشارات إلى تدهور الأوضاع الاجتماعية وسعة دائرة النضال والجهاد.

هـ - الوضع الثقافي والعلمي :

ازدهرت الحركة العلمية والثقافية في تلك الفترة واشتهرت مناطق جبل دمّر وجربة وجبل نفوسة ودرجين وبني ميزاب. وكانت القوافل بين الشرق والغرب غادية رائحة لا تخلو من حمولة كتب أو أوراق. وكانت الكتب تباع عند الوراقين والنساخين.

لم يقتصر النشاط الثقافي على المدن والقرى بل انتشر بين القبائل الضاربة في الصحراء (11).

لقد شهدت دمّر حياة ثقافية تمثلت في نشاط مراكز التعليم التي تبدو من خلال النصوص أنها ابتدائية، أما الدراسة الثانوية والعالية فهي في جربة ونفوسة، بالإضافة إلى حلقات دروس الوعظ والإرشاد في مختلف قضايا المعاملات الاجتماعية والعبارات وبعض القضايا العقائدية. كانت الرسائل ترد على مركز جبل دمّر من جربة ونفوسة تحوي أسئلة وأجوبة حول بعض القضايا (12).

أما مركز جربة فقد كان مركز إشعاع حضاري ولا يزال، أسهب الباحثون والمؤرخون والرحالة في وصف ما كانت عليه من عمران وحياة مزدهرة في مختلف فنون الحياة.

2 - أطوار حياته :

توطئة :

ورد بمقدمة مخطوط *كتائب كشف الغمة بالمكتبة البارونية* رقم *167* أن البرادي من أبناء القرن الثامن

(11) علي يحيى معمر - الأباضية في موكب التاريخ، ج 3 ص 352.
(12) العدالي - البرادي حياته وآثاره، ص 44.

الهجري و أوائل القرن التاسع، يكون إذن موجودا في الطور الثالث من أطوار الإباضية بجبل دمّر، طور التقلص والانقراض وموجودا خلال طوري الدولة الحفصية، الطور الثاني من 619 إلى 722 هـ طور الاضطرابات، والطور الثالث من 722 إلى 899 هـ طور التجدد والتماسك، ومعايشا أحداث أواخر العهد الثاني من عهد جربة خلال هجومات الإفرنج عليها سنة 688 هـ - 730 هـ - 835 هـ.

من هو البرّادي ؟

هو أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرّادي ويضيف الشيخ سالم بن يعقوب (13) لنسبه : بن سليمان ابن إبراهيم ابن أبي عمران الدمري نسبة إلى دمّر. والبرّادي لقبه الذي اشتهرت به أسرته التي مازالت فروعها موجودة بحومة جعبيرة بجربة.

يذكر الشماخي أن للبرادي ثلاثة أولاد هم :

1 - أبو محمد عبد الله

2 - أبو عبد الله محمد - خلّف أبا زكرياء

3 - إبراهيم خلّف أبا داود - وأبو داود خلّف سليمان - وسليمان خلّف عيسى.

لم يذكر الشماخي تاريخ ميلاد البرادي ووفاته وأشار إلى أن أبا محمد البرّادي تقدّم للمناظرة أمام أبي فارس عزوز الحفصي (838/796 هـ) (1433/1394م) بمحضر الحسين أحد علماء الزيتونة.

وجاء في معجم *المؤلفين لعمر رضا كحالة ج 8 باب القاف* أن البرّادي كان حيا حوالي 810 هـ الموافق لـ 1407م. ويثبت الأستاذ الصادق بن مرزوق في مقال بجريدة

(13) الشيخ سالم بن يعقوب فقيه ومؤرخ ولد في 1904/03/20 وتوفي في 1991/01/26 له كتاب تاريخ جزيرة جربة في 3 أجزاء صدر منه الجزء الأول فقط.

الصباح بتاريخ 6 أفريل و 4 ماي 1967 بعنوان أعلام من جربة أن البرّادي من تلاميذ الشيخ يعيش الجربي نقلا عن *الشمّاخي في سير المشائخ ص 575* وأن أحمد بن مكي أمير قابس توجه بسؤال سنة 737 هـ إلى الشيخ يعيش الذي توفى سنة 750 هـ

ويذكر الدكتور الحبيب الجنحاني في : *حوليات الجامعة عدد 15 لسنة 1977*. البرّادي عاش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع هجري، بينما يذهب الدكتور عمّار الطالبي في كتابه *آراء الخوارج الكلامية ج 2 ص 281* إلى أن البرّادي من أهل القرن التاسع هجري ويجعل تاريخ حجه سنة 875 هـ

ويعتبره الدكتور فرحات الجعبيري في (*نظام العزّابة ص 268*) من أهل القرن الثامن الهجري - الرابع عشر مسيحي - وفي آخر كتاب «شفاء الحائم» يعد البرادي بإتمام الشرح ويذكر سبب الانقطاع وهو اعتزامه أداء فريضة الحج، ويذكر تاريخ الحج في مقدمة مهّد بها كشف الغمّة وذكر أنه بعث بالكتاب إلى ذويه من مكّة شرّفها الله سنة 775 هـ 1374/1373م. وبذلك لا يصحّ ماذهب إليه الدكتور عمّار الطالبي من أن حجّه كان سنة 875 هـ بل كان سنة 775 هـ حسبما ذكر البرّادي ولا يمكن أن يكون تلميذا للشيخ يعيش المتوفي 750 هـ وحجّه سنة 875 هـ إذ يصبح عمره وقت حجّه 125 سنة بالإضافة إلى سنوات طفولته. وبناء على هذا يمكن اعتبار أبي الفضل أبي القاسم البرّادي مولودا في أواخر الربع الأول من القرن الثامن هـ ووفاته بعد سنة 810 هـ في الربع الأول من القرن التاسع هـ واعتمادا على هذا يمكن تحديد أطوار حياته بثلاث أطوار.

1) **طور النشأة والتعليم** بدمّر وجربة ونفوسة من 725 هـ إلى 745 هـ

Les soirées des fêtes des mariages à Djerba et ailleurs. Enfin, il me

2) **طور العمل والدعوة** بدمّر من 745هـ إلى750هـ

3) **طور رئاسة مجلس العزابة** بجربة من سنة 750هـ إلى ما بعد سنة 810هـ

الطور الأول : النشأة والتعليم

تعلمه : نشأ البرّادي وسط مجتمع إباضي بدمّر وتعلّم وفقا لمناهج التعليم عند الأباضية وهي ذات 3 مراحل :

1 – إبتدائي في الكتاتيب بجبل دمّر.

2 – ثانوي بالمساجد والمدارس القارة والمتنقلة بجربة.

3 – عالي متخصّص للتبحّر في مختلف العلوم وخاصة العقيدة وفروع الفقه والوقوف عند مسائل الخلاف بين المذاهب وأعلام الفقهاء وكبار المتكلمين بجبل نفسوة.

* **مركز جبل دمّر** : تعلم الكتابة وحفظ ما تيسّر من القرآن ودرس مبادئ العقيدة والفقه عن طريق حفظ بعض المتون كل ذلك وسط المساجد الأرضية وتحت ضلال الأشجار وأمام الغرف وتحت الخيام.

* **مركز جربة** : درس بمدرسة الشيخ يعيش الزواغي الجربي بوادي الزبيب، الذي كان يرأس مجلس العزابة وتولّى بعده تلميذه أبو الفضل البرّادي رئاسته بعد وفاة شيخه 750 هـ

مركز جبل نفوسة : إلتحق البرّادي بمدرسة أبي ساكن عامر بن علي الشماخي المتوفي سنة 792هـ/1389–1390م ومدرسة أبي موسى عيسى الطرميسي التي كان من خريجيها الشيخ إسماعيل الجيطالي وعامر الشماخي.

واصل البرّادي دراسته بجبل نفوسة وتنقل من حلقة إلى حلقة ومن مركز إلى مركز يطالع كتب المشارقة

les soirees des fetes des mariages a Djerba et ailleurs. Entant, je me

والمغاربة من الموافقين والمخالفين حتى أصبح علما من أعلام زمانه.

لقد تأثر البرّادي بشيوخه تأثرا واعيا وذكر منهم الشيخ الجربي الزواغي المتوفي سنة 750هـ وصالح بن نجم المغراوي وأبي ساكن عامر بن علي الشماخي المتوفي سنة 792هـ (14).

الطور الثاني : العمل والدعوة

سكن البرادي دمّر واستقرّ بها يعلّم الناس ويحكم بينهم ويربي ناشئتهم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكانت دمّر خارجة عن نفوذ سلطة الحفصيين وقد أثبت البرّادي ذلك خلال تأليف كتاب الجواهر المنتقاة عند كلامه عن حكم صلاة الجمعة الإمام الجائر، هل يجوز أو لا يجوز ؟ فقال : أما نحن أهل الجبل فلا سلطان جائر ولا عادل ولا أمير قاسط ولا مقسّط.

كانت تأتيه الرسائل من جربة ومن غيرها تحتوي على أسئلة علمية في شتى الفنون أكثرها في الفقه، منها رسالة حول الوصية والعطية ورسالة من الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد الصدغياني الجربي يستفتي الشيخ البرادي في مسائل عملية وعقائدية. كما وردت عليه رسالة حول الصدقة وأجاب بما فيه الكفاية.

- ومن هنا يمكن اعتبار البرّادي أول من ألف في الحقائق العلمية مجرّدة من بين علماء الأباضية وأول من أحصى تأليف أهل مذهبه مشرقا ومغربا.

الطور الثالث : رئاسة مجلس العزابة بجربة :

لما توفى الشيخ أبو البقاء يعيش الزواغي رئيس مجلس العزابة سنة 750 هـ عام المجاعة والطاعون، تحول أبو

(14) الشماخي - سير المشائخ ص 560-574 - طبعة حجرية بالمكتبة البارونية رقم 16.

الفضل البرّادي من دمّر إلى جزيرة جربة واستقرّ بمسجد وادي الزبيب جامع ولحي حاليا.

اتخذ البرّادي من الجزيرة مقرا ومنطلقا لدعوته الإصلاحية وميدانا لكفاحه في سبيل الله، انتصب للتدريس فكان له مجلس عظيم يجمع أكابر العلماء عند الشيخ سعيد بن علي يامون بمنطقة غيزن للنظر والتشاور في كل الشؤون على اختلافها.

- كان البرّادي يتنقل بكثرة بين مختلف أحياء جربة للاتصال بالناس في قراهم لفض مشاكلهم ودراسة أحوالهم واشتهر اسمه بين الناس وعرف بسداد الرأي وصار محلّ إعجاب وتقدير العام والخاص وتنوقلت أقواله بين المجالس العائلية وحلقات المساجد، يدلّ على ذلك وفرة ما كان يرد عليه من رسائل وهو بجبل دمّر بالإضافة إلى معرفة عقيدته كاملة في أهم القضايا الحسّاسة مما أهله إلى أحقيته في تولّي رئاسة مجلس العزابة بجزيرة جربة بعد وفاة شيخه.

تلاميذه : ورد في *سير الشماخي* 574 و 575 الطبعة الحجرية ص رقم 16 أن تلاميذه هم : أبو عثمان سعيد بن أحمد السدويكشي وأبو زكرياء يحيى بن أفلح الجربي

ووالداه : أبو محمد عبد الله الذي ترأس مجلس العزابة بعد والده وأبو عبد الله محمد الذي استقرّ بجبل دمّر بعد انصراف والده إلى جربة.

وفاته :

لم نعثر على تاريخ وفاة أبي الفضل البرّادي والراجح أنه توفي فيما بين سنة 810هـ و 820هـ

3 - الحياة العلمية لدى البرادي :

1) منهجه وخصائصه

كان منهج البرّادي ذا طابع تأليفي متفتح وذا خصائص

يمكن تصنيفها إلى خاصيات عامة تشترك فيها كل تآليفه ومميزات خاصة انفرد بها كلّ أثر على الأثر الآخر وقد بدا في جميعها مقوّما للكثير من المفاهيم المنحرفة ومجدّدا مختلف العادات العقلية التي ألفها مختلف الأوضاع ومن توفير أكثر ما يمكن من عوامل.

تدعيم الإباضية واستمرارها كمذهب إسلامي يقدر على تبليغ تعاليم الإسلام وتطبيقها في شتى مجالات الحياة.

نلاحظ من خلال مؤلفاته أن له خصائص عامة تكوّن منهجه في البحث تتمثل في :

أ - الاستقصاء والإمعان في التدقيق ببسط آرائه مع المقارنة بين النسخ.

ب - النقل اللفظي والمعنوي مع ذكر المصدر وإيراد الأسانيد.

ج - الإحالة على المصادر.

د - النقد.

هـ - التأثر بالمعتزلة.

للبرادي جملة من الصفات تبدو واضحة من خلال آثاره العلمية منها التواضع والصراحة والجرأة والزهد والنزاهة والاعتدال (15).

2) تآليفه :

للبرّادي مؤلفات عديدة مطبوعة ومخطوطة منها :

أ - الجواهر المنتقاة فيما أخلّ به كتاب الطبقات :

توجد نسخة حجرية طبعت سنة 1302 هـ بالمكتبة

(15) العدالي - البرادي حياته وآثاره ص 68.

البارونية بالقاهرة ونسختين خطيتين بالمكتبة البارونية بجربة قسم التاريخ رقم 32 و 173. الأولى بها 240 صفحة والثانية بها 183 صفحة.

– أما سبب تأليف الجواهر المنتقاة فيعود إلى ما حمله البرّادي في نفسه من عزم على التأليف لحاجة المجتمع الإباضي بجبل نفوسة وجربة وجبل دمّر وغيرها من المناطق الإباضية وخاصة طبقات الطلبة والعلماء الذين كثيرا ما يتعرّضون إلى الأحداث التاريخية الكبرى وبالأخص الفتنة الكبرى موضع الخلاف ومصدر الافتراق ومنشأ المذهب. ويعود كذلك إلى المكانة المرموقة لكتاب الطبقات بين الأوساط العلمية (16).

– سعى البرّادي في الحصول على نسخة منها فلمّا تصفحها وجد أن المؤلف قد أهمل ذكر الصدر الأول ورأى أن الكتاب يحتاج إلى تصدير فجمع في ذلك آثار الإباضية ومخاليفهم جملة من النصوص أطلق عليها اسم الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات.

وفي تعليق للشيخين سالم بن يعقوب وقاسم قوجه حول رسالة العدالي بتاريخ 1983/10/25 ورد ما يلي :

– ذكر الدكتور *سالم العدالي في كتابه البرّادي حياته وآثاره ص 81* أن البرّادي أخذ نصّا من مقدمة طبقات الدرجيني (*طبقات المشائخ بالمغرب*) حول الحمد وشرحه، فيرى أن الحمد هو الثناء وهو قسمان : مطلق ومقيد، فالمطلق فرض والمقيد واجب... إلى آخر ما أورد حول هذه اللفظة. ثم علّق أن هذا بكتاب *طبقات المشائخ بالمغرب ج 1*.

أشار الدكتور العدالي على شيء من هذا القبيل في كتاب الدرجيني وأغرب من هذا ما أشار به من تغاير الفرض للواجب عند الإباضية وهو أمر لا نعلمه بتاتا اللهم

(16) البرادي – الجواهر المنتقاة ص 1–2–3–4.

إلا في باب الحج وهذا ما نعرفه أيضا عند المالكية ولم نر التفريق بينهما إلا عند الحنفية.

كما ذكر الدكتور العدالي في نفس الكتاب ص 81 أن البرّادي يحلل فقرة حول فضل العلم تفيد أن العلم يقود إلى السعادة الأبدية... إلى أن قال : وأن للعلماء المرتبة الثانية في الشفاعة بعد الأنبياء وذكر في التعليق أن هذا *بطبقات المشائخ بالمغرب ج 1 ص 2* كذلك لم نعثر على هذا حيث حدّده، ثم أن الذي نعلمه عند الإباضية أن لا شفاعة لأحد، نبيّا كان أو عالما في أحد مهما كان إلا بعمله الصالح الذي هو عربون نجاته. أمّا من مات على كبيرة دون توبة فلا يجد شفيعا ولا نصيرا. هذا مبدأ الإباضية من الآيات الكريمة منها قوله تعالى : «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى» (الآية 28 سورة الأنبياء).

ويحتوي كتاب الجواهر كذلك على :

1 – سبب تأليفه :

2 – فصول من سيرة الرسول (ص) وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن وجملة من مآثر معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح وعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري عبد الله بن عباس وعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن وهب الراسبي ... إلخ.

3 – ثم يورد رسالة الإمام محمد بن أفلح حول مسألة خلق القرآن ثم لمع من سيرة الحلقة ويختم بفصل الموت وعذاب القبر وأحواله.

يبدو أن البرّادي حرّر كتاب الجواهر بجبل دمّر، يدل على ذلك قوله (*بالصفحات 34 – 35 – 36*) : أما نحن أهل الجبل فقد خفف الله فيها عليها (يعني صلاة الجمعة) إذ لا سلطان جائر ولا عادل ولا أمير قاسط ولا مقسط.

وتظهر قيمة الكتاب في *جملة المسائل التي تضمنها* :

1 – خلافة عثمان بن عفان سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

2 – خلافة علي بن أبي طالب وابنه الحسن وإحداث الفتنة وأطوارها.

3 – أهل النخيلة ونشأة الخوارج والأباضية (17).

4 – الطبقة الأولى من طبقات الأباضية.

5 – صورة من صور السياسة القضائية في عهد الدولة الرستومية.

6 – رسالة ابن أباض إلى عبد الملك بن مروان (18).

ورسالة الإمام محمد بن أفلح حول خلق القرآن (19) ولمع من سيرة الحلقة.

ويبيّن البرّادي سبب تأليف أبي العباس كتاب الطبقات ذلك أن بعض العزابة ذكر له سبب تأليف أبي العباس هذا الكتاب «لما وصل الحاج عيسى بن زكرياء من بلاد عمان بما معه من كتب ورد بها المغرب مثل كتاب الحل لابن واصف وجامع الشيخ أبي الحسن وجامع أبي جعفر وغيره، أعرب عن رغبة الأباضية بعمان في تأليف كتاب يتضمن من سيرة أوائل الإباضية ومناقب الأسلاف من أهل المغرب من لدن وقع فيه المذهب إلى هلم جرا.

فشاور من بجربة يومئذ من العزابة والفقهاء ونظروا في كتاب الشيخ أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر فوجدوه مخلا ببعض التفاصيل قاصرا دون أمد التحصيل فلم يروا أهلا لهذا التصنيف غير أبي العباس فعنده طلبه الحاج المذكور آنفا».

(17) عمار الطالبي – آراء الخوارج الكلامية ج 1 ص 35.
(18) البرادي – الجواهر المنتقاة ص 134–143.
(19) البرادي – الجواهر المنتقاة ص 156.

ب - **رسالة تآليف الإباضية** : أو تعداد أسماء الكتب.

- يعود سبب كتابة هذه الرسالة إلى طلب أهل عمان من البرادي بإرسال تقييد بأسماء التآليف التي ألفها أهل الدعوة، فكتب إليهم بكل ما بلغه وحاول أن يستقصي ذلك غاية الاستقصاء وأن يبين وقوفه أو عدم وقوفه على تلك الكتب وهذا ما دعاه إلى أن يطيل فيها.

- حرّرها بعد أداء فريضة الحجّ.

- لم يذكر أبو العباس الشماخي في كتاب السير هذه الرسالة ضمن مؤلفات البرّادي لأنها ألحقت بكتاب الجواهر المنتقاة. ولم يذكرها البرّادي ضمن قائمة محتوى الجواهر وتبدأ من صفحة 218 من نصف السطر الرابع عشر تحت عنوان : «ذكر ما وقفت عليه وسمعت به من تآليف أصحابنا، ويبدأ بذكر تآليف أهل المشرق وعددها أربعة وعشرون كتابا».

محتوى الرسالة :

1) **مقدّمـــة** : تضمنت استعداد البرّادي للإجابة عن طلب أهل عمان.

2) **ثلاثة أجزاء :**

* **الجزء الأول** : يحتوي على تآليف أهل المشرق وعددها 32 كتابا مجملها في التاريخ والحديث والفقه والأصول.

* **الجزء الثاني** : تآليف أهل الجبل وعددها 12 كتابا.

* **الجزء الثالث** : تآليف أهل المغرب وعددها 41 كتابا.

- **ما كتب بالصفحة الأولى** : «بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. هذه رسالة فيها تقييد كتب أصحابنا مما ألفه

الشيخ الفاضل أبو القاسم بن إبراهيم البرّادي رحمه الله تعالى ورضي عنه».

- ما كتب بالصفحة الأخيرة :

«فهذا ما سمعت به أو وقفت عليه من تآليف أصحابنا. انتهى على يد كاتبه علي بن موسى البروني من خط عمنا الشيخ عبد الله الجادوي رحمه الله تعالى وذكر الشيخ المذكور أنه من نسخة منسوخة من خط المؤلف بذكر الناسخ وذكر أنه فيه كلمات ممترشة تركها بياضا وأصلحها بعد من تقييد آخر ذكر أنه من خط الشيخ أمغار بن صابر الصدغياني والسلام - وصلى الله على سيدنا محمد».

* ذكر الأستاذ الصادق بن مرزوق بمقال بجريدة *الصباح بتاريخ 4 جوان 1967* تحت عنوان «*أعلام من جربة*» أن هناك بعض الفصول الحقت بكتاب الجواهر المنتقاة يظهر أنها لم تكن من أصل الكتاب وإنما أضافها من تولى نشره فجاءت كذيل له وهي قائمة فيها أسماء كتب الإباضية.

* أما المستشرق «موتيلانسكي» فيعدها تأليفا مستقلا، وترجمها معتمدا على نسخة خطية يعود تاريخها إلى سنة 1188 هـ 1774م ونشر هذه الترجمة سنة 1815م.

* وقام بتحقيقها الدكتور عمار الطالبي (21).

اعتمد فيها على نسختين، نسخة الجواهر المنتقاة ونسخة كتاب أفعال العباد، مخطوط بمكتبة مصر، ويذكر أن البرّادي كتبها مرتين، مرّة مختصرة، ومرّة مطولة، وسبب تأليف الثانية مطولة استجابة لطلب أهل عمان.

(20) مخطوط بالمكتبة البارونية بجربة عدد الرسم 130/2.

(21) عمار الطالبي - آراء الخوارج الكلامية ج 2 - ص 281.

- توجد رسالة خطية للبرادي بالمكتبة البارونية بجربة ضمن مجموع تحت عنوان «أفعال العباد» تقع في 7 صفحات ونصف من الحجم الصغير، مقاس 21 X 16 - بها 176 سطرا بمعدل 24 سطرا في الصفحة الواحدة مسجلة تحت عدد 130/2.

ج - البحث الصادق والاستكشاف عن حقائق معاني كتاب العدل والانصاف :

- توجد نسختان مخطوطتان قديمتان ورقها ممترش الأطراف، كتابتها جميلة، تقع في 280 و 295 صفحة، قياسها {20،5 X 15،5 و 24 X 17، معدل السطور بالصفحة 21 و 24، *بالمكتبة البارونية* رقم *74* و *164* نسخت في *1275* هـ}.

- حرّرها البرّادي قبل أداء فريضة الحج. قسّم البرّادي المتن إلى أربعة وتسعين مقطعا.

يكتب «فصل» ثم يتبعه بنص المتن ويكتب الشرح بحروف أكبر حجما ويكون مغايرا، غالبا ما يكون أحمر، وعلى بعض الطرر تهميشات وتعاليق لعبد الله الصدويكشي.

- أما كتاب العدل والإنصاف فهو لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الورجلاني من أهل وارجلان. واد بأرض المغرب، ذكر الدرجيني أنه في 8 أجزاء أما الشماخي فذكر أن الكتاب في 3 أو 4 أجزاء ونسب إليه كتاب الدليل والبرهان وجواباته ورسائله وكتاب الترتيب في الصحيح رواية الربيع بن حبيب وهو المسند.

- محتوى كتاب البحث الصادق :

يحتوي *الجزء الأول* على مقدمة وتسعة أبواب منها : العلم واستعمال الإثنتي عشرية وباب أقسام العلوم، القول في الروح والعقل، باب في الأفعال، باب في الكلام.

- اعتمد البرادي في شرح متن العدل والإنصاف على 34 مرجعا منها : كتاب إحياء علوم الدين للغزالي (450-505هـ / 1059-1111م) وكتاب الموجز لأبي عمار عبد الكافي الإباضي وكتاب طبقات المشايخ لأبي العباس الدرجيني وكتاب الدليل والبرهان لأبي يعقوب الدرجلاني.

كما استشهد البرادي بمجموعة من الأشعار بلغت 61 بيتا و 44 شاهدا يتركب من بيت إلى بيتين وقد يصل إلى خمسة أبيات.

د - رسالة الحقائق :

رسالة الحقائق وحدود العلوم الشرعية والاعتقادات.

طبعت طبعة حجرية بمطبعة الباروني بالقاهرة سنة 1316 هـ وتوجد منسوخة عند الشيخ سالم بن يعقوب بغيزن جربة (1904/3/20 - 1991/1/26). وقد حققها الدكتور سالم العدالي في 26 جمادي الثاني 1404هـ الموافق لـ 29 مارس 1984 يطلق عليها البرادي اسم «أطروفة المفيد» وقد أشار إليها في كتاب البحث *الصادق والاستكشاف ص 122 و 259.*

- ذكر الشماخي في *كتاب السير رقم 16 طبعة حجرية ص 576* بالمكتبة البارونية سبب كتابتها وهو إجابة البرادي عن سؤال حول الحدود الشرعية، توجّه به إليه الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد الجربي الصدغياني ضمن رسالة وجهها من جربة إلى أبي الفضل البرّادي بجبل دمّر فأجاب عن حدود بعض العلم وحقائقه. ولما وصلت أطروفة المفيد هذا الشيخ أنشد قصيدة يمدح فيها البرّادي ويشيد بالرسالة لأن البرّادي أظهر فيها علمه وبيّن درجته.

- يظهر أن تأليف هذه الرسالة كان بعد الجواهر بجبل دمّر ويلاحظ أن بين النسخة الحجرية ونسخة الشيخ سالم بن يعقوب خلافا في وجود بعض الحقائق في هذه غير موجودة

في الأخرى والعكس.

تتكون الرسالة من :

1) مقدمة الناسخ بيّن فيها سبب التأليف (22).

2) تمهيد البرادي تعرّض فيه للوضع السياسي والاجتماعي في عهده.

3) بيان القوى النفسية الثلاث : الخيالية والدنيئة والغضبية، ويقف عند حالتي الرغبة والرهبة عند الإنسان.

4) عرض جملة الحقائق المتعلقة بمختلف العلوم الشرعية والاعتقادات.

5) الخاتمة : حول ما أسماه البرادي بالأقاليم السبعة.

يرمز بالإقليم إلى جملة من الكتب والتآليف الإباضية مثل تفسير هود بن محكم الهواري.

والأقاليم السبعة هي : 1 – علم الكلام

2 – علم الفقه

3 – علم النحو

4 – علم اللغة

5 – علم أصول الفقه

6 – علم الحديث

7 – علم التفسير

أما الحقائق فقد ذكر البرّادي 92 حقيقة منها على

---

(22) سير الشماخي ص 574.

سبيل الذكر : الحقيقة 1 – حقيقة النظر

الحقيقة 2 – حقيقة العلم

الحقيقة 3 – حقيقة العقل

الحقيقة 4 – حقيقة الفقه

الحقيقة 51 – حقيقة الكفر

الحقيقة 63 – حقيقة الرجاء

الحقيقة 68 – حقيقة التوبة

الحقيقة 75 – حقيقة الشكر

الحقيقة 92 – حقيقة النسخ

ملاحظة : ورد ذكر شيء من الحقائق مما جمعه الشيخ البرّادي في نهاية كتاب شرح الدعائم (يوجد بالمكتبة البارونية بجربة رقم 75).

هـ – شفاء الحائم في شرح بعض الدعائم :

مخطوطة قديمة تمترشت أطراف أوراقها ولا تزال كتابتها واضحة، ضخمة العناوين، كتبت مقاطع المتن بحبر أحمر، وتقع النسخة في 304 صفحة من الحجم الصغير، قياسها 21،5 X 15،5، معدل السطور بالصفحة 20 سطرا.

– توجد النسخة الخطية *بالمكتبة البارونية بجربة رقم 75.*

ينسب البرّادي كتاب الدعائم لأبي بكر أحمد بن النظر العماني.

سميت بالدعائم حسب ابن وصاف لكونها دعائم العلم والدين. أقدم البرّادي على شرح دعائم ابن النظر العماني فشرح منها خمس قصائد فقط ويذكر أن نيّة السفر إلى الحج حالت دون إتمام شرحه.

المحتوى : 5 دعائم :

- الدعامة الأولى : منظومة في التوحيد.

- الدعامة الثانية : منظومة في الحجة على معرفة الخالق من المخلوق.

- الدعامة الثالثة : منظومة في خلق الأفعال والرد على القدرية.

- الدعامة الرابعة : منظومة في الردّ على من يقول بخلق القرآن.

- الدعامة الخامسة : منظومة في الطهارات وغسل النجاسات.

* يمتاز أسلوب البرّادي بالتراكيب السهلة والمفردات الواضحة تحقق غرضه من عملية الشرح في رفادة الطلبة ويتمثل ذلك في إثراء زاده اللغوي بما وفره من شواهد اللفظ والمعنى والفوائد العلمية.

اعتمد البرّادي في شرح الدعائم على عدة *مراجع* منها :

- كتاب الحل لابن وصاف.
- كتاب صفة الذاهب.
- تفسير أبي الحسن علي بن رضوان الهروي
- تفسير الماوردي
- تفسير النقاش
- كتاب جوهر القرآن ودرره لأبي حامد الغزالي
- كتاب شرح الجهلات
- كتاب السؤالات
- المسند لأبي الربيع بن حبيب.

و – جواب أهل الخلاف :

هو ردّ على من هاجم مذهب الإباضية

ذكر المستشرق البولوني «*لويكي*» نقلا عن المستشرق «*شاخت*» أن الكتاب توجد منه نسخة خطية في بني «يزقن» إحدى قرى وادي ميزاب بجنوب الجزائر، مسقط رأس الشاعر مفدي زكرياء.

والكتاب ذو أهمية لأنه متضمن لعدة مسائل خلافية بين الإباضية وغيرها من الفرق. نتمنى أن يتم تحقيقه قبل أن يندثر لأنه غير موجود بجربة إلى حدّ علمنا.

ز – الأجوبة :

ترك أبو الفضل البرّادي جملة من الأجوبة والفتاوي.

ذكر الدكتور علي يحيى معمر المؤرخ الليبي أنها تدل على أن الرجل بلغ من العلم درجة تجاوزت مرتبة التقليد إلى الاجتهاد وأثبتت قدرته على الاستقلال بالرأي في الفتوى.

وهي مجموعة أجوبة عن جملة من الأسئلة توجه بها إليه عدد من أصحابه في المذهب منهم : – محمد بن فارس، والشيخ محمد بن علي بن محمد المنذري والشيخ زكرياء بن سليمان والشيخ أبي محمد عبد الله بن يوسف الزادِيني وجواب هذا الأخير يوجد بالمكتبة البارونية تحت رقم 140 في صفحتين.

1) **الجواب الأول** : حول الإقرار والعطية والصدقة (23).
2) **الجواب الثاني** : حول الوصية وبعض أحكامها وصورها (24).
3) **الجواب الثالث** : رأي البرّادي في مال الأوقاف (25).

(23) كتاب صغير طبعة حجرية توجد عند الأستاذ ساسي بن يحي بصدويكش بجربة.
(24) توجد نسخة بمكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بمنطقة غيزن بجربة.
(25)نسخة بمكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بمنطقة غيزن بجربة.

4 - الخاتمـــة :

من خلال عرض الأوضاع الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة جبل دمّر منذ انتشار الإباضية بشمال إفريقيا إلى عهد البرادي خلال القرن الثامن الهجري، يمكن تحديد الإطار العام لحياة البرّادي وأطوارها وما لذلك من أثر بالغ على آثاره العلمية.

ذكر الدكتور سالم العدالي في كتابه (26) «فأبو الفضل البرّادي يمثل مظهر التفاعل بين إباضية المشرق وإباضية المغرب ويعدّ مظهر اعتدال ونضج بين علماء الإباضية ومفكّريها ويعتبر من جهة تفاعل بين الإباضية والمالكية، وتحوّل فكري ذي طابع تأليفي بين مفكّري عصره، بالإضافة إلى معرفة الأصول الإباضية وقواعد التفكير المذهبي عند هذه الفرقة».

ومن النتائج التي يمكن إثباتها، الطابع العقلي الذي امتاز به البرّادي من خلال آثاره العلمية وأحكامه وآرائه التي أقرّها وحرص على تطبيقها وترسيخها في الأذهان خاصة لدى الطلبة الذين يدرسون عليه.

ومن الأسباب التي دعت البرّادي إلى تحرير رسالة الحقائق يفهم ما كان شائعا بين الأوساط من صراعات بين جملة من المفاهيم تتفاوت قربا وبعدا من الحق الذي ينبغي أن تكون عليه أو تستجيب لشتى الأغراض التي تناط بها وتدعى إلى تحقيقها سواء كان لذلك في فنّ الأصول أو الكلام أو الزهد أو الفقه.

وقد أثر البرادي في مجتمعه تأثيرا بالغا جعل تلاميذه من بعده يواصلون أعماله العلمية والاجتماعية أمثال عبد الله الصدويكشي الذي حرص على تعقب آثار شيخه بالجمع والإصلاح والتعليق والبيان خاصة كتاب البحث الصادق والاستكشاف.

(26) العدالي - البرادي حياته وآثاره ص 411.

هذه عينة من أصول الفكر الإباضي مستوحاة من حياة وآثار عالم من علمائها، أرجو أن أكون قد ساهمت في إحياء تراث ثمين مهدد من الاندثار تزخر به هذه الجزيرة.

لا يسعني في الختام إلاّ أن أتوجه بالشكر إلى جمعية صيانة جزيرة جربة على تنظيم مثل هذه الندوات واللقاءات لإحياء التراث وصيانته.

واللـه الموفق لما فيه الخيـــر

سعيد بن يوسف الباروني
جانفي 1994

مراجع البحث :

1 - البرّادي - حياته وآثاره

رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة - إعداد سالم العدالي بإشراف الدكتور علي الشابي - السنة الجامعية 1982/1402.

2 - نظام العزابة الوهبية في جربة تأليف الأستاذ فرحات الجعبيري - طبعة 1975.

3 - ملامح عن الحركة العلمية عند الإباضية بجربة من الفتح الإسلامي سنة 47هـ إلى أواخر القرن الثاني عشر هجري - تأليف الأستاذ فرحات الجعبيري طبعة 1985.

4 - مقال بجريدة الصباح بتاريخ 1967/5/4 للأستاذ الصادق بن مرزوق تحت عنوان : أعلام من جربة : أبو القاسم البرّادي.

5 - مخطوط في تاريخ جزيرة جربة بعنوان : جزيرة جربة عبر التاريخ - الحلقة الثانية : الحياة الثقافية بالجزيرة للأستاذ يوسف بن أمحمد الباروني.

6 - مقدمة ابن خلدون.

7 - الإباضية في موكب التاريخ للأستاذ علي يحيى معمر.

8 - سير المشايخ للشماخي.

9 - مجموعة مخطوطات للبرّادي بالمكتبة البارونية بجربة.

10 - كتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني.

11 - تعليق حول رسالة العدالي (البرّادي حياته وآثاره).

للشيخين : سالم بن يعقوب {1904/3/20-1991/1/26}

وقاسم قوجة {1927/10/2-1993/4/28}

بتاريخ 1983/10/25.

الشيخ عمر بن جميع
عصره وحياته ومكتابه

قبل كل شيء أعبر لكم عن فائق سروري بلقائكم السعيد الذي مكنتنا منه «جمعية صيانة جزيرة جربة». ولا يسعني إلا أن أرفع إلى مسيّريها أحر عبارات الشكر والثناء.

لقد طلب مني أن أشارك في هذا اللقاء بكلمة يكون موضوعها الحديث عن أحد الأعلام الذين أنجبتهم الجزيرة، فرأيت من واجبي أن ألبي دعوتها، وليس لي من مبرر لأرفض رغبتها. وهذا أقل ما يمكن أن أقدمه لتشجيعها.

وبعد تفكير وتردد استقر رأيي على اختيار تقديم شخصية مغمورة نسبيا منسية عمليا وأعني به : الشيخ عمر بن جميع : عصره حياته كتابه وهو من علماء القرن السابع والثامن للهجرة (13-14م) وهي الفترة التي عرفت بأنها من أزهى العصور التي مرت بها بلادنا سواء على النطاق القومي، أم على النطاق المحلي الذي ساد الجزيرة : إذ عرفت فيه بالنشاط في عدة ميادين، وذاقت حلاوة الازدهار في العيش والتفتح على العلم والمعرفة.

ومن ناحية أخرى كم قاست من مرارة الاضطهاد، كما سنرى نماذج من هذا وذاك بحول الله.

ففي القرن السابع هجري (الثالث عشر والرابع عشر ميلادي) وهو القرن الذي نشأ فيه الشيخ عمر بن جميع،

برزت كثير من الأحداث العالمية عموما والمغربية خصوصا.

فقد تجددت فيه الحروب الصليبية واشتد الصراع بين المسلمين بزعامة تركيا، وبين النصارى بقيادة إسبانيا ومن التفّ حولها من الدول الأروبية. وكان البابا نفسه وأكابر أعضاده مندفعين أشد الاندفاع لنصرة الجيوش التي كانت تجند لقهر المسلمين والاستيلاء على بلدانهم وابتزاز خيراتهم. ولكن كلنا نعلم كيف توالت الهزائم على المغيرين بعد ما لحقهم من دفاع المقاومين.

وفي هذا القرن سقطت الدولة العباسية التي كانت تتخبط في عهد الشيخوخة الذي قضى عليه هجوم التتار.

وعلى العكس من ذلك في مغربنا فقد شهدت بلادنا رغم الكثير من المحن الداخلية والخارجية أيام رخاء وانتعاش الحضارة مما حمل أمير مكة وأهل الحجاز إلى البيعة بالخلافة المستنصر بالله الحفصي سنة 657 هـ (1259م).

ومن أشهر الأحداث في القرن السابع زحفة الفرنسيين الصليبيين على تونس بقيادة القديس لويس (سان لوي) بأسطول قوامه أربعون ألف مقاتل. وانتهت معارك هذه الحملة بموت هذا القديس وعدد كبير من جنوده بمرض الوباء الذي سرى بينهم سريان اللهب في الهشيم. كان هذا سنة 669 هـ (1270م)، واضطرت البقية منهم إلى العودة إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة مدنسين بمرارة الهزيمة بعدما أجبروا على دفع غرامات باهضة إلى المستنصر بالله الحفصي.

وفي أواخر القرن السابع كثرت الفتن الداخلية خصوصا منها الصراع على السلطة بين كبار الأسرة الحفصية الحاكمة. واستمر التطاحن بينهم مما أفضى بالدولة إلى الانقسام بين شرقية وغربية.

وسجل القرن الثامن تقدما في الحضارة وازدهارا في العلوم ويظهر هذا جليا بعد استيلاء المارينيين على تونس باستدعاء من الوزير ابن تافروجين وتيسر استرجاع الولايات التي خرجت عن السلطة الحفصية. ولما خمدت الفتن بفضل السلطان «المتوكل على الله» وجه عناية فائقة إلى ميادين الفلاحة والصناعة وتنشيط التجارة ونشر العلوم.

فقد برز إذاك علماء أعلام كالقاضي محمد بن عبد السلام، والإمام ابن عرفة، والفيلسوف ابن خلدون. وغيرهم كثير من جهابذة الفقهاء، ونوابغ الأدباء الذين زخرت بأسماء عشرات منهم صفحات ناصعة في تاريخ البلاد التونسية.

وقلما اجتمع في عهد واحد من رجال الفكر مثل ما يلاحظ في القرن الثامن.

هذا باختصار ما جرى في البلاد التونسية بوجه عام.

فماذا كان يدور في جزيرتنا إذاك ؟

وما هي أهم الأحداث التي توالت عليها ؟

ومن هم أبرز الرجال الذين كتب لأسمائهم البقاء والذكر الحسن ؟

من المعلوم أن جزيرة جربة قد تقلبت في علاقتها بالسلطة المركزية بين عدة أنواع من الارتباط الحكمي بالعاصمة، من التبعية الكاملة، والتبعية الرسمية الصورية، والاستقلال الداخلي، والاستقلال التام.

كانت جربة في القرن السابع هدفا مرموقا لغزوات الإسبان. واستطاع أهلها بالاعتماد على أنفسهم وإمكانياتهم البسيطة الضئيلة الصمود في مواجهة الغزاة ببطولة نادرة، وتضحيات جسيمة. كان هذا في عهد حكم الجزيرة من أسرة السمومنيين، وبإشراف مشائخ مجالس العزابة الذين يعتمد عليهم الإباضية في حل جميع مشاكلهم.

واعترف لهم أعداؤهم بالشجاعة والتفاني : قال «منتنار» حفيد الملك «روجار» مولى الرحالة الإدريسي «إن هولاء الشياطين (أي الجربيين) لم يتركوا للحصن أي طمأنينة...» وقال أيضا : «لم نر أكثر حماسا من هؤلاء. فهم في الحقيقة يتهافتون على الموت تهافتا...» والحق ما شهد به الأعداء كما يقول المثل.

والإدريسي نفسه ينعت أهل جزيرة جربة بقوله : «إنهم مفسدون في البر والبحر». ولقد كان صادقا في قوله، إذ كان يعبر عن رأي أسياده نصارى الإسبان، الذين كان عميلا لهم. وكان الجربيون يفسدون جميع مخططاتهم الصليبية التي كانت ترمي إلى تنصير الجزيرة حتى تصير منطلقا لحملاتهم على غيرها من البلدان الإسلامية.

لقد عانت الجزيرة أكثر من غيرها بالنسبة للحملات الصليبية، ومع ذلك لم تيأس، ولم تستسلم لأعداء دين الله.

قال ابن خلدون : وترددت (جربة) بين المسلمين والنصارى إلى أن احتلها الموحدون. ثم احتلها النصارى سنة 688 هـ فبنوا بها حصن القشتيل. ويذكر الحيلاتي : «إن الشيخ سليمان بن صالح السمومني استشهد سنة 699 هـ (1300 - 1301 م) بجهة تاربلا، غربي برج القشتيل». بعد معارك حامية لمقاومة الغزو الإسباني.

في هذه الظروف الحالكة كيف كان موقف السلطة المركزية ؟

بينما كان الجربيون منهمكين في حرب ضروس دون تكافؤ بينهم وبين النصارى بزعامة إسبانيا العظمى يرسل أبو عصيدة الحفصي الأمير اللحياني على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل لا لمؤازرة أبناء الجزيرة المسلمين، ولكن لمحاربتهم وتأديبهم لتخلفهم بسبب الظروف القاسية التي أحاطت بهم عن إرسال الأداءات المضروبة عليهم قهرا وظلما.

فقد طعن المجاهدين من خلف، وأعان النصارى بطريقة غير مباشرة، إذ انتزع من الأولين مبالغ هامة من أموالهم في وقت هم في أشد الحاجة إليها - فالمال قوام الأعمال...! وكان يعاضده كاتب سره محمد التيجاني، صاحب الرحلة المشهورة الذي لم يدخر وسعا في التقول والافتراء على الأباضية ابتغاء تبرير هذه الحملة الشنيعة، وهذا الغدر المقيت. وهذا نوع من الحرب النفسية.

ورغم ذلك تمكن الجربيون من طرد أعدائهم سنة 738 هـ (1337م) بعد ما استولوا عنوة على برج القشتيل سنة 735 هـ (1334م) بمؤازرة القائد الحفصي ابن مكي الذي صار واليا على الجزيرة.

وتوطدت علاقته بأبنائها، فربط علاقة طيبة برئيس العزابة الشيخ يعيش، الذي يعتبر من أبرز علماء ذلك العصر، الذي جمع نخبة طيبة في الجزيرة من العلماء والأدباء. نخص بالذكر منهم في هذه العجالة : الفقيه الفيلسوف إسماعيل الجيطالي صاحب عديد التآليف المفيدة التي بلغت نحو العشرة من المؤلفات في العلوم الشرعية والفلسفية والرياضية... ومن رجال هذا العصر أيضا : أبو محمد الصدغياني وصالح المغراوي وأبو الفضل البرادي الفيلسوف والمؤرخ الكبير الذي اشتهر بكتابه «الجواهر المنتقاة بما أخل به كتاب الطبقات».

وكذلك الشيخ عمر بن جميع الذي كتبت هذه السطور للوقوف على جانب من ظروف عصره، وأهم مراحل حياته، ومعرفة الكتاب المنسوب إليه.

لقد نشأ هذا الشيخ في القرن السابع للهجرة (القرن الثالث عشر ميلادي). ولم نجد إلى حد الآن من حدد له تاريخ ولادته، شأنه في ذلك شأن الكثير من رجال العصور المتقدمة التي تتركز فيها العناية على تاريخ الوفاة، وما ذلك إلا لأن

الإنسان إذا ولد يكون نكرة لا يهتم بولادته غير أهله. وإذا ما تفتحت مواهبه، وبرز نبوغه، يلتف حوله الأشخاص وتتاح الفرصة للعناية بحياته وتسجيل أهم أعماله، وإذا ما أدركته الوفاة يدون غالبا تاريخها لتتداوله الأجيال من بعده. كذلك لم نعثر على قائمة مشائخه الذين تلقى عنهم العلم. ومن المؤكد أنه حفظ القرآن ونال مبادئ العربية والفقه في جزيرة جربة. والأقارب في حومة والغ، التي ينتسب إليها. ومازالت أسرة ابن جميع معروفة في الجهة الشمالية منها وكذلك في ميدون. وكانت الجزيرة إذاك تزخر بالمعاهد العلمية.

ومن أشهرها الجامع الكبير بالحشان الذي أسسه أبو مسور في أواخر القرن الثالث. وظهر إشعاعه في أوائل القرن الرابع، حتى صار مركزا هاما يقصده الطلاب من جربة وغيرها.

وليس من الغريب أن يلتحق الشيخ ابن جميع بمعهد الجامع الكبير، خصوصا وأن المسافة بين والغ والحشان غير بعيدة. فهي لا تتجاوز الخمسة أميال. يقطعها التلاميذ على الأقدام في أقلّ من ساعة وبكل يسر خلافا لأبناء عصرنا الذين طغى عليهم الاعتماد على وسائل النقل المختلفة فأورثتهم الميل إلى التواكل والكسل.

في القرن الذي نشأ فيه شيخنا كانت نفطة من أهم المدن بالجنوب التونسي التي ازدهرت فيها الحياة الثقافية بما اجتمع فيها من خيرة العلماء، وكبار الفقهاء. وكانت مركزا من مراكز إشعاع المذهب الأباضي. وكان من أبرز المثقفين الذين عرفتهم تلك المنطقة في القرن السابع الشيخ أبو العباس أحمد الدرجيني، المتوفى سنة 670 هـ (1272م). وهو مؤلف كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، الذي يعود إليه الكثير من الباحثين الدارسين لتاريخ الثقافة

بالمغرب العربي. يذكر بعض المترجمين للشيخ ابن جميع أنه تتلمذ على الشيخ الدرجيني. إذن فقد رحل إلى نفطة في طلب العلم. ومن المرجح أنه قام بذلك في النصف الثاني للعقد الثاني من عمره. إذ لا أتصور أنه غادر مسقط رأسه ليقطع مئات الأميال، سالكا أماكن قفرة، اشتهرت بالأخطار، وسنه دون الخامسة عشر، خصوصا في تلك العهود التي كثرت فيها الفتن، واختل الأمن بما ينشره من فساد قطاع الطرق وأمثالهم.

أوردت هذا لنصل إلى أن المترجم له وجدنا روايتين لتاريخ وفاته : تحدد الرواية الأولى وفاته سنة 750 هـ وهذا مستبعد لأننا كما ذكرت أنه كان جالس الشيخ الدرجيني المتوفى سنة 670 هـ وهو في أواسط أو أواخر العقد الثاني من عمره. ولا يمكن التسليم بهذا القول إلا إذا اعتبرنا أن حياته دامت نحو قرن. ومعلوم أن معدل الأعمار خصوصا في ذلك العهد لا يتجاوز الخمسين سنة وقليل من يبلغ الثمانين، اللهم إلا إذا كان من شواذ عصره. وما ذلك على الله بعزيز. ولكننا لم نجد عند من كتبوا عنه ولو مجرد إشارة إلى أنه كان من المعمرين كثيرا، مثلما وجدنا بالنسبة للشيخ أبي عمرو النميلي الذي ذبحه الصنهاجيون عند حملتهم على جربة سنة 431 هـ وعمره مئة وعشرون سنة.

وعلى كل فإني أميل في تاريخ وفاة ابن جميع إلى ما اختاره الشيخ إبراهيم اطفيش الذي ترجم له في مقدمة الكتاب المنسوب إليه «مقدمة التوحيد» إذ يقول : أنه أدرك بداية القرن الثامن وقد حدّد بعضهم هذا بسنة 737 هـ وهو أقرب إلى الصواب لما تقدم. هذا وقد دفن رحمه الله في مقبرة جامع تفارجين، الذي مازال قائما في حالة خراب يرثى لها بجهة والغ الشمالية غير بعيد عن سوق الجملة الآن. وإني حاولت تحديد مكان قبره فلم أهتد إلى ذلك. والتجأت إلى بعض أبناء أسرته الذين مازالوا يسكنون

بالقرب من ذلك الجامع عساني أجد من يدلني على مكان قبره. وكلفت من يسأل عجائزهم، لأن مثلهن معروفات بالتردد على قبور العلماء والصالحين للتوسل بهم، فلم أظفر بشيء مما كنت أتوقع عند أحفاده، والغريب أن البعض منهم لم يكن يسمع حتى باسمه.

أما علاقة هذا العالم بعلماء عصره سواء داخل الجزيرة أو خارجها فلم نجد من يحدثنا عنها سوى دراسته عند الشيخ الدرجيني. هذا مع العلم أنه عاصر بجربة عددا لا بأس به من فحول العلماء وكبار النبغاء مثل ما ذكرت آنفا.

فإني لا أتصور قعوده عن ربط علاقة بمجموعة منهم خصوصا العلامة الجيطالي الذي ما أن قدم من ليبيا واستقر بجربة وانتصب للتدريس والتأليف في الجامع الكبير بالحشان حتى أقبل على حلقته علماء الجزيرة من جميع الجهات كما يؤكد هذا المترجمون لهذا العلامة الجليل، سيما وأن كل منهما أمازيغي، لغته الأصلية الأولى هي البربرية.

ونصل الآن إلى الحديث عن الكتاب المنسوب إليه «مقدمة التوحيد». الذي يعترف الشيخ ابن جميع أنه ترجمه إلى العربية إذ يقول في بدايته : فإني وجدت هذه النسخة منسوخة بالبربرية في توحيد خالق البرية، فسألني من لا أرد قوله ولا أجهل فضله أن أنقلها من لسان البربرية إلى لسان العربية ليبين لفظها ويسهل على اللسان حفظها، فأجبته إلى ما طلب، وساعفته فيما رغب، والخير في ذلك أردت...

فالأصح أنه لم يؤلفه شخصيّا وإنما اعتنى به، وتولى مهمة الترجمة. وهذا إن دلنا على شيء فإنه يدلنا على أن اللغة البربرية بقيت معتمدة بالمغرب الكبير إلى ما بعد القرن السابع تخاطبا وكتابة خلافا لمن يدعي أنها انقرضت بعد زحفة الهلاليين. نعم زاحمتها بعد ذلك العهد العربية

التي فرضت سيطرتها على أغلب السكان دون أن تقضي على البربرية التي مازالت متداولة في عدة مناطق بجميع أقطار مغربنا إلى عصرنا الحالي.

يشتمل كتاب «مقدمة التوحيد» مع شرحيه على مائة وسبع وستين صفحة من الحجم المتوسط بما في ذلك المقدمة التمهيدية المفيدة التي كتبها الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، الذي نشرها وباشر بنفسه تصحيحها، والإنفاق على طبعها لأول مرة سنة 1350 هـ 1931 م بمصر. ثمّ طبعت بالجزائر سنة 1392 هـ 1973 م حسبما اطلعت على ذلك. وبلغني أنها طبعت كذلك أخيرا في عمان.

وأهم المسائل التي تناولها هذا الكتاب هي :

القصد من قواعد الإسلام.

الإيمان والكفر وحدّ الدين ومسالكه.

أقسام الناس بالنسبة للدين والولاية والبراءة.

الحكم في المؤمنين وأهل الكتاب المجوس والمشركين.

الإيمان بالكتب السماوية والأنبياء والرسل والملائكة.

الأشهر الحرم والأيام المعلومات والمعدودات. والفرز بين الكبائر.

جاءت هذه الرسالة المنسوبة للشيخ عمر بن جميع في منتهى الاختصار بعربية بليغة وأسلوب متين جذاب، خال من التعقيد يستهويك بسلاسته. فاستمع إليه مثلا كيف استفتح كلامه بقوله : الحمد لله الذي سمك السماء بغير عمد، ليس له ابتداء ولا نهاية ولا مد ... الخ ... وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على تمكن بعض العلماء البربر من اللغة العربية أحسن تمكن، إذ أمثال ابن جميع بالمغرب كثير، شبيها بما قام به أبناء الفرس بالمشرق.

وضع عدد من العلماء لهذا المتن شروحا كثيرة أضفوا عليه جوانب هامة من التحليل والتفصيل والتعليق.

وأستطيع أن أتحدث في هذا السياق عن ثلاثة منهم :

الأول : شرح أبي سعيد أحمد الشماخي شهر «البدر» المتوفى سنة 928 هـ وقد اكتسب شهرة فائقة بتأليفه «كتاب السير» المعروف عند جل الباحثين.

الثاني : شرح أبي سليمان داود التلاتي الذي قتله غدرا - ومازال في كهولته - القائد درغوث التركي. لما وجد فيه من اتساع الإشعاع وقوة التأثير على أهل الجزيرة، وعدم خضوعه لسياسة الولاة الأتراك الذين طغى عليهم مركب الغرور بانتصاراتهم الباهرة... وقبر الشيخ أبي سليمان داود التلاتي مازال معروفا في جامع «سيدي داود» المنسوب إليه. ويقع في حومة بركوك من عمادة الرياض... فقد بلغت عناية التلاتي بمتن «مقدمة التوحيد» أن كتب عليها ثلاثة شروح : مختصر، ومتوسط، ومطول. ويظهر أنه وضع الأول للتلاميذ المبتدئين والثاني لتلاميذ المرحلة الثانوية والثالث لطلبة التعليم العالي. والشرح المتوسط هو الذي بين أيدينا مع الأصل فقد وقع عليه اختيار الشيخ إبراهيم اطفيش للنشر وهو أكثر الشروح تداولا واعتمادا.

الشارح الثالث : هو قطب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف أطفيش المتوفى سنة 1332 هـ 1914م. ويقع في 458 صفحة من الحجم المتوسط. طبع مستقلا بالجزائر طبعة بسيطة على ورق متواضع سنة 1328 هـ 1910 م. وهو أطول الشروح وأغزرها مادة وأعمقها بحثا. يرجع إليه كل من رام معرفة دقائق عقيدة الإباضية في وحدانية الله والإيمان بكتبه ورسله وملائكته. ولا غرابة أن جدد طبعه أخيرا، لأن الطبعة الأولى نفذت منذ زمان بعيد.

هذا ما أمكن أن أقدم في هذه المناسبة عن الشيخ عمر

ابن جميع وعصره وكتابه.

فما هو موقف بعض العلماء منه ؟

قال البدر الشماخي في كتاب السير : كان إماما مشهورا، وكان من بين العلماء منظورا... وفي عصرنا كتب عنه الكثير. منهم الأخ علي معمر والصديق محمد محفوظ في كتابه تراجم المؤلفين التونسيين، وعدون جهلان في كتابه الفكر السياسي عند الأباضية.

وقد تحدث عنه أيضا عدد من المستشرقين مثل الإيطالي ألفونسو فلينو - والألماني جولد تسيهر - والفرنسي موتيلا نسكي. والبولوني لويتسكي - وغير هؤلاء وأولئك كثير مما لا يسع المقام لذكرهم.

فصاحبنا معروف إذن في المشرق والمغرب. لم يبق مبرر لعدم معرفة الكثير من مثقفي الجزيرة لمكانته. وما ذنبه إذا كان مجهولا أو منسيا عند بعضنا ولاشك أنه حان الوقت لننصفه ونرد له اعتباره بتسمية مؤسسة أو نهج باسمه حتى لا تنساه الأجيال الحاضرة والمقبلة. وهذا في متناول بلدية حومة السوق بكل يسر حتى تضيف إنجازا حسنا - ولو كان يسيرا - إلى ما عرفت به من عديد الإنجازات التي كانت لصالح العباد والبلاد. والله الموفق إلى الصواب والسلام عليكم ورحمة الله.

الصادق بن مرزوق
جانفي 1994

لمحة موجزة حول
صالح شيبوب الجربي (؟... 1865)

ارتبطت علاقتي بصالح شيبوب الجربي من خلال ترددي على مدينة غار الملح بصفتي المشرف على ترميم الميناء القديم بها. وقد مكنتني هذه الزيارات من الاطلاع على بقايا القصر العظيم الذي أنشأه بهذه المدينة.

يعد صالح شيبوب من أهم الشخصيات التي لعبت دورا كبيرا في المجالين السياسي والعسكري اثناء حكم أحمد باي (1837-1855) الذي عرفت فيه البلاد التونسية بوادر الاصلاح والنهضة المتمثلة في :

- تكوين وتنظيم جيش عصري على منوال الجيوش الأوروبية.

- بعث صناعات عسكرية وتأسيس مدرسة باردو الحربية سنة 1840 التي تخرجت منها نخبة من رجال الاصلاح كخير الدين باشا والقائد محمد رشيد (1) والفريق حسين...

- إنشاء بحريّة حربية وبناء ميناء عصري بغار الملح أراده الباي أن يكون نسخة من الميناء الفرنسي تولون Toulon وقد كلف صالح شيبوب بالإشراف على عملية البناء.

ولإعداد هذه الدراسة اعتمدت أساسا على كتاب الإتحاف لابن أبي الضياف (2) وخاصة على ما يقارب الـ 1300 وثيقة

وأربعة دفاتر تمكّنت من الاطلاع عليها بالأرشيف الوطني التونسي ودار الكتب التونسية إلاّ أني لم أتمكّن من دراستها بصورة معمقة. وإني مستعد لتسليمها لمن يريد دراستها.

1 - حياته :

يذكر أحمد ابن أبي الضياف أنّ «والده من أواسط أهل جربة، يتجر في سوق البركة في نسيج جربة وثبت ابنه هذا على صفر سنة في الموسيقى العسكرية في دولة الباشا أبي عبد الله حسين باي (1824-1835) ثم استخدمه المشير أبو العباس أحمد باي وحمد نجابته وخفة نفسه فأولاه بنباشي...

وتبين الوثائق التي اطلعنا عليها أن والده عثمان شيبوب كانت له حانوت بسوق البركة وذلك سنة 1836 وأما الطاهر شيبوب الذي يمكن أن يكون أحد أقربائه فقد كان يتعاطى صناعة الشاشية وكان له وساما «نيشانا» وأما الحاج أحمد شيبوب الذي توفي سنة 1854 فقد كان تاجرا بتونس.

التحق إذن صالح شيبوب مبكرا بالخدمة العسكرية وتفرغ إليها وتولى عدة خطط عسكرية هامة إلى أن أصبح آلاي أمين سنة 1842 ثم قائم مقام سنة 1843 وأخيرا أمير لواء سنة 1850.

وبجانب هذه المهام العسكرية الهامة فقد باشر عدة وظائف مدنية ومنها كاهية بنزرت وغار الملح سنة 1850 ولزام غابة زيتون بنزرت سنة 1851 وقيادة ماطر وبجاوة سنة 1853. ونظرا لتفانيه في خدمة الباي فقد تم توسيمه بعدة أوسمة سنوات 1842 و 1845 و 1852.

«وزوجه (أحمد باي) من بنت الوزير أبي الثناء محمود ابن الوزير أبي عبد الله محمد خوجة،... وبنى بها في حلق الوادي قرب دار أبيها في علو بناه له».

وقد رافق صالح شيبوب أحمد باي عند قيامه برحلته المشهورة إلى فرنسا في شهر نوفمبر 1846 وقد كلف بأداء مهام منها سفره إلى سردانيا لمقابلة ملكها سنة 1850 إلا أن الباي سريعا ما «نقم عليه» وسجنه بسراية باردو مدة سنة لسوء أدب صدر منه في خدمته وأمور «نقمها عليه» سنة 1854.

ويمكن أن تكون حادثة هروب محمد العنابي قاضي رأس الجبل إلى دار قنصل إنجلترا بعد أن «أمر أمير لواء عسكر غار الملح صالح شيبوب أخذ ابنيه غصبا للخدمة بسراية غار الملح وفداهما بمال فأخذه ولم يسرحهما...» وعظمت هذه النازلة الشنعاء في الإسلام هي السبب في سجنه أو «الغلط والتيه» كما يذكر ابن أبي الضياف وأطلق الباي سراحه وأعاده إلى رتبته إلاّ أنه تعرض للتنكيل والنفي بداية من سنة 1858 من طرف محمد باي (1855-1859) بجزيرة جربة حيث «قابله أعيانها بالإجلال وأجروا له طعام الضيف وقد تزوج بآمنة ابنة مصطفى كنيالي الحنفي التركي وخلف بنتين وولدين وتعرضت ثروته الهائلة للمصادرة والاستحواذ من طرف الباي الذي منحه في المقابل جراية تساوي 500 ريال سنة 1859. وبقي بجربة إلى أن توفي سنة 1865 ودفن بها وترك زوجته التي اظطرت إلى طلب الإعانة من الباي.

2 - ثروتـــه

تبين الوثائق التي تمكنا من الاطلاع عليها أنه كان يملك مساحات شاسعة من الأراضي الفلاحية (هناشير، وغابات زياتين وسواني) والعقارات (دكاكين، فنادق، طواحين، معاصر، ديار، قصور، مقاهي) والعديد من الحيوانات (غنم، بقر) والمصوغ والأحجار الكريمة والأواني والآلات النحاسية والفضية والذهبية... والخيول.

الهناشير

هنشير قرنودة، هنشير دار قديربتاكلسة، هنشير بمزل بوزلفة، هنشير رواد، هنشير بجبل الرصاص، هنشير الجربي بالفحص، هنشير المنقوب، هنشير مكادة، هنشير تسالة بالعالية، هنشير بجانب الحنايا، هنشير أم الزين وسوق الوطا وبوقبرين بماطر، هنشير بالقيروان، هنشير بوسالم، هنشير بطبربة، هنشير بالحويض.

غابات الزياتين

بزغوان، وسليمان والمنزل وطبربة وعوسجة ومرناق. وقد بلغ عدد أشجار الزياتين أكثر من 64000 شجرة.

السواني

بغار الملح وزغوان وبني خيار وسليمان وباردو.

العقارات

الدكاكين : 8 بزغوان وحانوت بسوق البلاط.

الفنادق والمخازن

فندق الرحبة بزغوان، مخزن بحمام الرميمي بتونس، مخزن بمنزل بوزلفة.

الطواحين

طاحونة بزغوان، طاحونة بغار الملح، وباطان بزغوان.

المعاصر

معصرة بمنزل بوزلفة، معرصة سليمان، معصرة بزغوان.

الديار

دار بسليمان، دار بنابل، دار بزغوان، دار بحلق الوادي، دار بحمام الأنف، دار برحبة الغنم بتونس، دار بالمحمدية.

القصور

قصر بغار الملح وقصر بباردو.

المقاهي

مقهى ؟

ونقف من خلال المعلومات الثمينة التي تسجلها الوثائق أن صالح شيبوب كان يشتغل بمتاجرة الزيت والقمح خاصة. ويظهر أنه كان يتعامل تجاريا مع مالطة وجنوة وفرنسا فضلا على تعامله مع مختلف جهات البلاد التونسية.

ويمكن أن نلتمس من خلال بعض الوثائق التي اطلعنا عليها أن صالح شيبوب كانت له علاقات تجارية ومالية (إقراض واقتراض) مع اليهود والمالطين والوزير مصطفى خزندار وكذلك مع قنصل أمريكا.

وتؤكد الوثائق حقيقة الدور الذي لعبه وكلاؤه وأعوانه المنشرون في العديد من الجهات التونسية والأجنبية في التصرف وتنمية هذه الثروة. ويمكن أن نذكر منهم : عمر الكواش وحمدة الغادي ومحمد الغمادي وعثمان البحري وبن جازية...

ويظهر أنه لم تكن التجارة وحدها هي العامل الرئيسي في إنشاء وتنمية هذه الثروة بل أن مختلف الوظائف العسكرية والمدنية التي مارسها صالح شيبوب هي التي كانت تمثل مصدرا للكسب وزيادة الثراء فاستغلال النفوذ ونظام الالتزام وتوابعهما كالاحتكار والاستحواذ والتعسف والرشوة كانت عوامل رئيسية أخرى مساعدة على زيادتها وتضخيمها حتى كادت أن تصبح «خيالية».

لعب إذن صالح شيبوب دورا كبيرا في الحياة

غار الملح. بقايا قصر صالح شيبوب

علاقة صالح شيبوب مع خير الدين باشا

SH. Dos. 883, Carte 75, Doc. 101

ARCHIVES GÉNÉRALES
DU
GOUVERNEMENT TUNISIEN

اهتمام صالح شيبوب بنسخ المخطوطات

SH. Dos. 887, Carte 76, Doc. 23

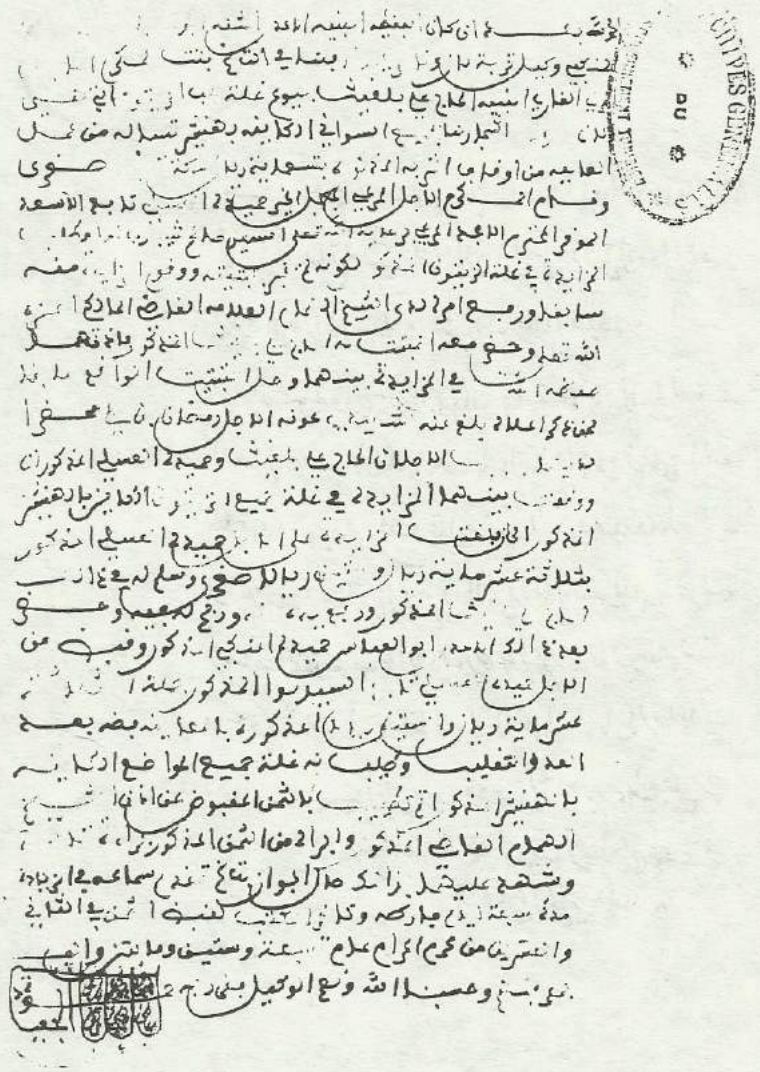

من أملاك صالح شيبوب، هنشير تسالة

SH. Dos. 884, Carte 76, Doc. 411

من أملاك صالح شيبوب : أدوات وألبسة

SH. Dos. 884, Carte 76, Doc. 417

زوجة صالح شيبوب

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

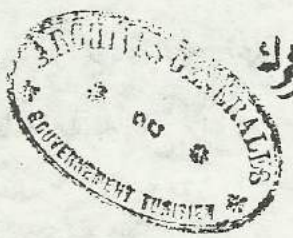

الى حضرة امير المومنين وناصر الدين سيدنا ومولانا وولي نعمتنا
الكعبة الاعظم والصدر المفخم المتوسل به على بذل مولانا
الغفير مولانا سيدنا المشير محمد الصادق باشا باي حرسه الله
بعينه العظيمة واسبل الله عليه ستره وعلى جميع الاربعة
وبعد تقبيل ايديكم الاكرام سيدي ايفادى الله بلغنا جواب
الامر الخطير امير الالوي سيدي سماعيل صاحب الطابع
المخلص يجري على مقتضى امر اسيادنا المطاعم الشريفة
بما تعطفتم علينا بالمرتب في كل شهر فحمداية ربي
ربنا يبقيك لنا ولجميع المسلمين بجاه سيد المرسلين
ونطلب من الله تعالى ان يجعل الملك فيك وفي عقبك
الى اقي الزمان وربنا ينصرك ويبقيك والسلام من
عبدك صالح بن عثمان شيبوب عفى الله عنه وعنهم
في ٢١ جمادى الاول سنة ١٢٧٦

منح صالح شيبوب مرتب

SH. Dos. 883, Carte 75, Doc. 135

مصاريف صالح شيبوب عند سفره الى جنوة

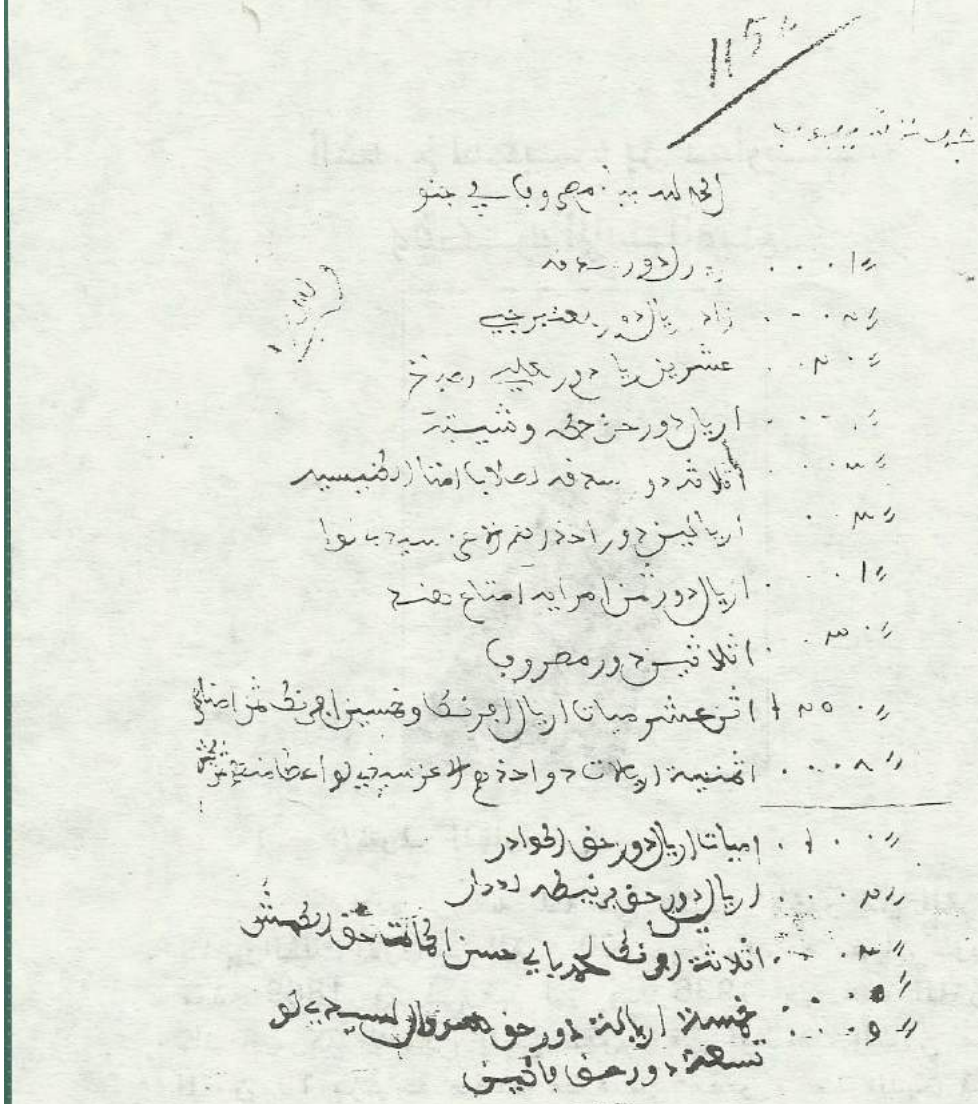

SH. Dos. 884, Carte 76, Doc. 456

الشيخ سعيد بن تعاريت وفكره الإسلامي

1 - الظرف التاريخي :

عاش والدي رحمه الله في الثلث الأخير من القرن 19م والثلث الأول من القرن 20م حيث ولد بصدغيان جربة سنة 1869، وتوفي في 13 إوت 1936، في هذه الفترة كانت حركة الإصلاح التي ظهرت في النصف الثاني من القرن 19 بزعامة محمد عبده في مصر وخير الدين في تونس قد بلغت أوجها وتولدت عنها نقطة في جميع المجالات مشرقا ومغربا.

2 - مصادر ثقافية :

تخرّج من جامع الزيتونة سنة 1894م/1312هـ وفي

سنة 1896م/1314هـ، ذهب الى يفرن احدى مدن جبل نفوسة بليبيا والتحق بالمدرسة الباروني وتتلمذ على الشيخ عبد الله الباروني. ثم رحل إلى ميزاب بالجزائر وأقام بها ثمانية أشهر يحضر دروس العلامة الشيخ محمد اطفيش ويساعده في التدريس.

وكان كثير التردد على المدرسة الخلدونية يتابع فيها دروسا منتظمة تتعلق بالعلوم العصرية كالحساب، والطبيعة وكان يتابع كذلك ما يلقى على منبرها من المحاضرات والمسامرات.

وفي رحابها تعرف على العديد من رجالات الأدب والثقافة والسياسة أمثال المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب والشيخ الخضر ابن الحسين والزعيم عبد العزيز الثعالبي، وهذا قد يفسّر لنا سرعة استجابة الشيخ الوالد للانخراط في الحزب الحرّ الدستوري التونسي الذي أسسه الثعالبي سنة 1920 وكان انخراطه سنة 1921م/1340هـ حسب بطاقة اشتراكه الحاملة لرقم 342 والصادرة عن مركز تونس بإمضاء أمين المال حمودة المستيري والكاتب العام أحمد الصافي. وزيادة على هذه المصادر المتنوعة لثقافته فقد كان محبا للمطالعة مدمنا عليها يطالع كل ما يمكن ان تصل إليه يداه من كتب ومجلات وصحف بالشراء أو بالذهاب إلى المكتبات العمومية كمكتبة الخلدونية ومكتبة العبدلية. ولا تقتصر مطالعاته على العلوم الدينية والأدبية بل كانت تشمل كذلك العلوم الصحيحة كالعلوم الطبيعية المتعلقة بالانسان والحيوان والنبات وبالعلوم الانسانية المختلفة كالتاريخ والجغرافيا وعلم الجيولوجيا والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسي وعلم الأخلاق والتربية الى غير ذلك من أنواع المعارف.

ومن أهم ما كان يطالعه ما يصدر عن زعماء حركة

الإصلاح ورجالها من كتب ومقالات منشورة في مختلف المجلات والجرائد نذكر على سبيل المثال مؤلفات خير الدين وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والخضر ابن الحسين ومن المجلات المنار، نور الاسلام، الرابطة الاسلامية المجلّة العثمانية، النشرة الخلدونية، العالم الأدبي. ومن الجرائد الحاضرة، الصواب، مرشد الأمة إلى آخره.

3 - فكره الإصلاحي :

ونتيجة لتنوع مصادر ثقافته واطلاعه على معارف عصره وتأثره الكبير بالحركة الاصلاحية وممارسته للعمل السياسي تبلورت لديه مجموعة من الأفكار تكوّن مبادئ أساسية لتحقيق نهضة الاسلام والمسلمين. ويظهر ذلك في كتابه (المسلك المحمود في معرفة الردود) المطبوع طبعة حجرية سنة 1903م/1321هـ. فهذا الكتاب وإن كان بالاساس كتابا دينيا لأنه ردّ على مفتي طرابلس الذي نسب للأباضية باطلا ما لا يقولون به فهو يدخل في اطار تفكيره الإصلاحي نظرا لما يتضمنه من آراء صائبة وتوجيهات سديدة. ويمكن تلخيص الخطوط العريضة لفكره الاصلاحي فيما يلي :

أ - دعوة المسلمين إلى الاتحاد ونبذ الشقاق :

يقول الشيخ الوالد في كتابه (المسلك المحمود في معرفة الردود) ص : 251 «.... وما أحوجنا معشر المسلمين قاطبة في هذه الاوقات التي تراكمت علينا فيها البلايا والكربات إلى نفض غبار الحقد من قلوبنا والتظافر على ما يكون به اعلاء ديننا والاقبال على ما فيه سراج الحضارة والعمران لأنّ تقدّم كل أمّة انّما هو بالاتحاد والتعاون لا بالتعصّب والنّفرة بين السكان حسبما يشير الى ذلك قوله تعالى : «وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان...» ولكن تأسيس تلك القاعدة بين سائر المسلمين

لا يمكن الا بنبذ المناقشة المذهبية التي جعلها السّذج من فواكههم الطيبة المرضية... مع أنّهم في الحقيقة لا خلاف بينهم الا في مسائل جزئية لا تؤثّر في تعزيز رابطتهم الدينية».

ب - تنقية الاسلام مما علق به من بدع وأوهام :

وذلك كتلك التي تسرّبت اليه في عصور الجهل والانحطاط مثل التصوّف الذي امتزجت به أفكار لاهوتية ليست منه في شيء كالحلول والفناء. وكالطّرقية التي دخلته وانحرفت به عن مساره الصحيح. فالتصوّف في نظره التزام بالكتاب والسنّة عقيدة وعملا وسلوكا. وقد كان جمال الدين الأفغاني يقول لتلاميذه : أنا لا أفهم معنى لقول المتصوّفة الفناء في الله وإنما الفناء يكون في خلق الله نعلمهم وننبّهم إلى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم. جاء في كتاب المسلك المحمود ص : 241، «... ما يفعله أهل الطرق الموجودة الآن من الشطح وضرب الدّف والغناء الى غير ذلك من أنواع المنكر حتّى أنّ بعضهم يأكل النار والحيّات ويعدونه كرامة لأشياخهم الذين هم على طرائقهم فإنّه مخالف لدين الاسلام فضلا عن أن يكون كرامة. قال ابن الحاج من المالكية في المدخل : سئل الامام الطرطوشي ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية انه يجتمع جماعة من الرجال يكثرون من ذكر الله وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ثم أنّهم يوقعون أشعارا مع الطقطقة بالقضيب على شيء من الأديم ثم يقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يخرّ مغشيّا عليه هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ فأجابه بقوله : مذهب الصوفية جهالة وضلالة وما الاسلام إلاّ كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ثم يقول الشيخ الوالد في ص 246 : «... إنّ الصوفية الحقيقيين لا يشتغلون بالكلام عن اللاهوت والشطح وضرب

الطبول وأمثالها بل إنما يجعلون نصب أعينهم مجاهدة النفس وقمعها عن سائر الشهوات وإلزامها سبيل المأمورات والمنهيات».

ج - تحرير العقل من قيود التقليد والجمود والتعصب :

الاسلام عدوّ التقليد والجمود والتعصّب لأنها تلغي العقل الذي كرّم الله به الانسان وجعله بمقتضاه خليفته في أرضه وما تأخّر المسلمون دينا ودنيا الا بسبب هذه الافات. يقول مصطفى الرافعي في كتابه : الاسلام انطلاق لا جمود متحدّثا عن الاسلام والمسلمين في عصور الانحطاط ... «...وحمي وطيس الاراء والمذاهب فيهم وبالرغم من أن أصحاب المذاهب من الأولياء الصالحين فإن اتباعهم... كانوا يتطاحنون ويتذابحون وتنهمر بينهم الدماء. ولقد روي أن أهل قرية من الشوافعة قد أفنوا أهل قرية عن بكرة أبيهم لا لأنهم من عبدة الأوثان بل لأنّهم من الأحناف ص 23».

جاء في كتاب المسلك المحمود ص 237 : «... فمدار العبد واعتماده على تقوى مولاه فإنّ مجرّد الانتساب إلى مذهب من المذاهب لا يغني الانسان شيئا في دار عقباه». وتأييدا لما ذهب اليه نقل أقوالا لعلماء كبار تدعو كلها إلى تحرير العقل من قيود التقليد والتعصّب.

قال الشيخ محمد بن عبد العظيم المكّي الحنفي في رسالته المسماة (بالقول السديد في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد) ما نصّه : اعلم انه لم يكلّف الله أحدا من عباده أن يكون حنفيا أو مالكيا أو شافعيّا أو حنبليا بل أوجب عليهم الايمان بما بعث به محمّدا صلّى الله عليه وسلّم والعمل بشريعته. كتاب المسلك المحمود : ص 88.

وقال عزّ الدين بن عبد السلام في قواعده الكبرى :

« ...ومن العجب كل العجب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه دفعا وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك ما يشهد له الكتاب والسنّة والاقيسة الصحيحة بصحة مذهبه جمودا على تقليد إمامه بل يتحيل لدفع ظواهر الكتاب والسنّة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة...» إلى أن قال : «ولم يزل النّاس يسألون من اتفق لهم من العلماء من غير تقيد بمذهب ولا إنكار على أحد من المسلمين في ذلك إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين وهذا زيغ عن الحق لا يرضى به أحد من أهل الصواب وأولى الألباب». كتاب المسلك المحمود ص 90-91.

قال القرافي في شرح تنقيحه نقلا عن الزناتي : وأجمع الصحابة رضوان الله عليهم على أنّ من استفتى أبا بكر أو عمر وقلّدهما فله أن يستفتي أبا هريرة ومعاذ ابن جبل وغيرهما ويعمل بقولهما من غير نكير. كتاب المسلك المحمود ص 91.

د - الاقبال على العلوم العصرية :

ويبدو ذلك : أوّلا في تلقّيه لبعض العلوم الصحيحة كالحساب والعلوم الطبيعية والعلم الطبيعي الفيزيا. فقد وجدنا من بين مخطوطاته كرّاسا يقول في أول صفحة منه : «وبعد فهذه ورقات ضمنت فيها دروس العلم الطبيعي». ومن عناوين هذه الدروس : المادة، خصائص المادة، الصفات الخاصة. قوة الجذب والدفع، حالات المادة الثلاث، الجاذبيّة العامة، جاذبيّة الثقل، في الاجسام الساقطة، السرعة المتساوية، مركز الثقل، الحركة.

ثانيا فيما كتبه عن كثير من العلوم يعرّف بها ويبيّن تطورها وفوائدها ضمن مخطوطة هي عبارة عن شرح لقصيدة شيخه عبد الله الباروني تعدّ 120 بيتا ينصح فيها ابنه سليمان المجاهد الليبي المعروف عند ذهابه الى تونس

لطلب العلم بجامع الزيتونة سنة 1887م/1305هـ.

ومن جملة العلوم التي تحدّث عنها علم الجيولوجيا، علم الاجتماع، علم الاقتصاد السياسي، علم الأخلاق، علم التربية، إلى آخره...

مثلا يتحدّث عن مفهوم العلم يقول في الكراس رقم 20 ص 20 : «العلم في الاصطلاح العصري يطلق على مجموع المعارف الخالية من شوائب الظنون والأوهام فكل نظرية لا يحققها من جهة الحس دليل نبذت الى عالم التخمينات ولا يطلق عليها اسم علم. وأول من أسس هذه القاعدة باكون الانقليزي المتوفى سنة 1626 وقد وافق ذلك الروح القرآنية فقد أنكر الله على متبعي الظنون في آيات عديدة منها : «إن يتبعون الا الظنّ وإنهم الا يخرصون».

وعن علم الجيولوجيا يقول في الكراس رقم 20 ص 5 : «الجيولوجيا كلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين وهي جيو بمعنى أرض ولوغوس بمعنى علم فيكون معناهما علم الارض الذي يبحث فيه عن التركيب الطبيعي للكرة الأرضية وبيان طبقاتها وطبيعة كل منهما وما طرأ عليها من التغيرات التدريجية بالفواعل الكونيّة وتاريخ ما أكنته الأرض في باطنها من بقايا الحيوانات والنباتات القديمة...» إلى آخره وعن علم التربية يقول في الكراس رقم 16 ص 40 : «علم تربية الأطفال وتعليمهم المبادئ هو علم واسع تخدمه سائر العلوم الأخرى وله شأن كبير في أمريكا وفي أوروبا ولكنه في أمريكا أكبر شأنا حتى أن أكثر رجال السياسة زاولوا في مبادئ أعمالهم تعليم الأطفال لا لنيل معاش ولكن ثقة منهم بأنه لا يصلح لقيادة الرجال من لم يتمرّس بتأديب الأطفال. وهذه الفكرة كانت شائعة أيضا لدى اليونانيين الأقدمين الذين كانوا على جانب كبير من الاهتمام بأمر تربية الأطفال وتنمية قواهم» ثمّ يقول : «ثم جاء دور

النهضة عند الأوروبيين في القرن 15 و 16م فألف النوابغ كتبا في التربية ولكن خاصة بأبناء الملوك أما العامة فلم يعنهم أحد واستمرّ الحال كذلك حتّى جاء (جان جاك روسو) فألف رسالته في التربية هي كتابه المسمى (إميل) فيها معلومات ثمينة في فنّ تربية الأطفال...» إلى آخره.

– إنّ دراسة الشيخ الوالد لبعض العلوم العصرية وكتابته عنها لهي دعوة صريحة لجميع المسلمين للتأهب للحياة بأهبة العقل البصير والتّسلّح بسلاح العلم ولذلك فمن واجبهم أن يعرفوا دينهم حق المعرفة خالصا من عقبات الجمود والخرافة وان يقبلوا على العلوم بجد وإخلاص ليخرجوا من تخلفهم ويحققوا لأنفسهم القوة والمناعة والتقدّم والكرامة.

– ومن هنا يتبيّن بوضوح أن الشيخ الوالد رحمه الله كان مواكبا لعصره واعيا بقضايا أمته وداعيا من دعاة الإصلاح عمل من أجله وسخّر حياته في سبيله مدرّسا مرشدا وسياسيّا مناضلا.

علي ابن تعاريت

الشيخ سليمان الجادوي

هو سليمان بن قاسم الجادوي، ينحدر من أسرة بربرية الأصل، تنسب إلى بلدة (جادو) التي توجد بوسط جبل نفوسة بالقطر الليبي الشقيق.

وهذه البلدة عظم شأنها في بدء الفتح الإسلامي، خاصة في عهد دولة بني رستم بتاهرت، حتى قيل إنّه اجتمع بها نحو من أربعمائة عالم في عصر واحد.

ومن العلماء البارزين الذين اشتهروا بالعلم وسعة الاطلاع، والحزم والصّلاح في تلك البلدة، أحد أجداد الشيخ سليمان الجادوي، وهو الشيخ سعيد بن عبد اللّه الجادوي الذي رحل إلى (مصر)، وقضى بها نحو ثلاثين سنة في طلب العلم، وتلقّى الدّروس على كبار العلماء والفقهاء.

ولما رجع إلى تونس بعد ذلك، اختار الإقامة والاستقرار

بجزيرة جربة، وانتصب للتدريس بها، فالتفّ حوله عدد كبير من طلاّب العلم، من بينهم أبناؤه الذين واصلوا هم وأحفادهم بثّ العلم في صدور الرّجال.

في هذا الوسط العلمي والثقافي، ولد الشيخ سليمان الجادوي بأجيم بجزيرة جربة خلال عام (1871).

وبعد إتقانه لمبادئ العلوم، قدم إلى العاصمة (تونس)، والتحق بجامع الزّيتونة، وأخذ عن شيوخ أعلام، منهم المشايخ : عثمان بن المكي، وإسماعيل الصفّايحي، ومحمد بن يوسف، وأحمد بيرم، ومصطفى رضوان، وغيرهم.

وهؤلاء المشايخ هم من كبار العلماء والمدرّسين بالكلية الزّيتونية في ذلك العهد.

والمدة التي قضاها الشيخ سليمان الجادوي في طلب العلم بالكلية الزيتونية لم تدم أكثر من ثلاث سنوات، ارتحل بعدها إلى مدينة (يفرن) بجبل نفوسه بليبيا لمتابعة الدروس هناك، وخاصة للتّفقّه في المذهب الإباضي، ولازم دروس الشيخ عبد اللّه الباروني الذي كان من ألمع مدرّسي هذا المذهب بالمدرسة البارونية.

وقد ظهرت على الشيخ الجادوي في تلك المدّة علامات التّفوّق والنّبوغ، ممّا جعله محلّ تشجيع وتقدير.

ولما رجع إلى تونس، بعد أن ملأ وطابه بثقافة عربيّة إسلاميّة واسعة، احترف التّجارة، وفتح له دكّانا بسوق اللّفّة بالعاصمة.

وإثر هذه المرحلة من حياة الشيخ سليمان الجادوي، تحرّكت في نفسه نوازع الوطنية الصادقة، ففكّر في القيام بما يمليه عليه الواجب من الإسهام في تخليص الوطن ممّا يرزح فيه من المصائب والويلات، وتوعية الشّعب للاستفاقة من سباته العميق، ودفعه إلى العمل الإيجابي، وإظهار

استنكاره لما يسلّط عليه من ظلم وقهر، فأنشأ جريدة (المرشد) لإرشاد المواطنين التونسيين إلى ما ينبغي القيام به من كفاح لسلوك المستعمرين الذين يدوسون كرامتهم، ويعتدون على حقوقهم، ممّا لا يتحمّله من كان له ضمير حيّ، وإيمان صادق. إضافة إلى ذلك، فقد اهتمّ الشيخ الجادوي في هذه الجريدة بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر في أسلوب صحفي مبسّط، لا لبس فيه ولا تعقيد، وهو في متناول فهم الخاصّة والعامّة.

فلنستمع إلى ما جاء في المقال الذي كتبه في العدد الثاني من جريدة (المرشد) حيث يقول :

(... إنّ الشريعة المطهّرة، تأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وإيتاء الزكاة التي هي عبارة عن أخذ جزء من أموال الأغنياء تدفع للفقراء والمساكين، لسدّ خلّة فقرهم، حتّى لا تصبح عالة بين النّاس، يسألون غيرهم عن مسكنة، وتحثّ على التّعاون وكلّ ما لنا فيه خير، وتنهانا عن الرّذائل وكلّ ضير، كالكذب، والسّرقة، والنّميمة، والغيبة، والكبر، والرّياء، والحسد، وما شاكل ذلك من سائر أنواع الموبقات التي تأباها الكرامة الإنسانية، ويمجّها العقل السّليم، وينفرها الطّبع المستقيم، وتطلب حفظ الدّين، والنّفس، والمال، والعرض، والنّسب، التي بها قوام دعائم العمران، وعليها يدور محور بني الإنسان...) الخ...

وجريدة (المرشد) كتب فيها الشيخ سليمان الجادوي مقالات وطنية ملتهبة، تسبّبت له في كثير من الأتعاب والمعاناة، من غرامات وخطايا وسجون، علاوة على أن الإدارة الفرنسية كانت تدعوه إلى مراكز الشرطة في كلّ أسبوع لإنذاره وتوعده بالويل والثّبور إن هو تمادى في مهاجمتها، وفضح سلوكها نحو التونسيين، وكان في كلّ ذلك يسخر من هذا التهديد ولا يقيم وزنا لا للوعد ولا للوعيد.

واستمع إلى الشيخ الجادوي الذي كتب في هذا الموضوع يقول :

(... كانت الإدارة تتخبّط في الغضب حين تنظر إلى القانون، فلا تجد مبرّرا لمرادها فيه، وترى التّحرير، فيضيق صدر الإرهاق منها، فترسل وراءنا، وتبدي لنا من التّهديد الصّريح تارة، والمرمرم أخرى، ما أضحكنا يوما عندما عجزت عن الإتيان بدليل ما، حيث قالت لنا بلسان كاهيتها المستعرب... إنّ هذا الفصل متجسّم شدّة، وأنّه يحدث وجعا في البطن ! فأجبناه بأنّ ذلك شأن يخصّ الأطبّاء ! ثم أسفرت المقابلة عن ابتسام مصفر، أعقبه وداع !)

وهذه صورة أخرى ممّا كان يقاسيه هذا الرّجل الوطني الصّادق الشّجاع، فقد كتب في أحد أعداد جريدته مقالا بيّن فيه ما تعرّض له أثناء محاكمته من أجل مقال كتبه، وهو بعنوان :

كلمة في محاكمتنا الثانية أمام «الدّريبة» بدعوى إدارية (سنة 1907).

يقول الشيخ الجادوي بعد مقدّمة طويلة وفي سخرية :
(... فمن كان يخطر على باله أنّ الحكومة على نزاهة سرّها، وضخامة قدرها، تتنازل لمشاغبة واحد من رعاياها إذا هو أنكر عليها فعلا، وشدّد معها قولا، أو ناقشها الحساب في شيء من الأشياء، فضلا عن كونه من المجلّين لقدرها، والممتثلين لأمرها، ولو كان المحق بعينه، والمقت بمينه، كصاحب هذه الورقة الحقيرة.

ويواصل الشيخ الجادوي قائلا :

... وأيّ شيّ أسخف من مخاشنة الكبير للصّغير، والجليل للحقير، ولو صحّ اعتداء الآخرين على عظمة الأولين، لأنّ المراتب منها ما يزري بها الوقوف مع من هو دونها عزّة

وسلطانا، ذلك كلّه إذا ثبتت معاندة الضّعيف للقويّ، أمّا في صورة العكس، فإنّ الحال أقبح، وأفضح، وأبشع، وأشنع !).

هذا وكان الشيخ الجادوي بالمرصاد لتحرّكات المفسدين، والموالين للسّلطة الاستعمارية، يقاومهم بكلّ بسالة، ويفضحهم بكل شجاعة، من ذلك أنّه تعرّض لمحاكمة مشهورة إثر قضيّة رفعت ضدّه من طرف (محمد نعمان) المحامي الذي كان يقاوم رجال الحزب الدستوري، ويطعن في وطنيّة رجاله ومن ضمنهم الشيخ الجادوي، الذي تولّى المرافعة بنفسه أمام المحكمة التي انبهر أعضاؤها بفصاحته وقوّة حجّته، وأصدرت حكمها بعدم سماع الدعوى.

وإثر هذه المحاكمة، أظهر بعض المناوئين له عن اعتراضهم لهذا الحكم، فكتب مقالا طويلا يهاجمهم فيه، ويردّ على اعتراضهم بلهجة حادّة صارمة لا هوادة فيها، فهو يقول :

(... يا هؤلاء المعترضين، وإن كانت لا تجهل مجاراتكم، ومناقشتكم لكونكم تمثّلون الطبقة السّفلى من الأمة في أبشع أزيائها، والفئة الرّديئة منها في أقبح أشكالها، فإنّا نقول لكم كلمة شديدة، عملا بقاعدة أن «الكلب تقرعه العصا»... وهي أنّكم خاملون، جاهلون، عاطلون، مهذارون، ديدنكم الأخذ من الأعراض، في قهوات الأرباض، وسباب الأمجاد، في شوارع البلاد، والطّعن على الكتّاب، في كلّ حائط وباب، مهنتكم الفجور، وغذاؤكم نمير الخمور، لا وازع شرعيّ يزعكم، ولا رادع عقليّ يردعكم، ولا زاجر عاديّ يزجركم، ولا مانع حياء يمنعكم، ما أنتم فيه منهمكون، وحبطت أعمالكم، وخابت آمالكم، وانكشفت سوأة شقاشقكم، وانفضحت عمارتكم، وبانت دناءتكم، فهلاّ صبوتم للرّتوع في مراتع الفضيلة، والتخلّي عن منازع الرّذيلة، وغالبتم فتنة الهوى رجاء الخروج من ربقة بهائم الأنعام.

هذا ما ننصحه لكم، قبلتم أم رددتم، غضبتم أم رضيتم،

ومن أنذر فقد أعذر، ومن أرشد فقد استحقّ أن يؤجر، والسّلام على من قبل النّصيحة واهتدى).

أما في المجال السّياسي، فقد ضرب فيه الشيخ الجادوي بكلّ سهم، وكان مواكبا لكلّ ما جدّ في عصره من أحداث، وقاوم بقلمه بكلّ بسالة ظلم الاستعمار الفرنسي وطغيانه، وفضح مقاصده ونواياه.

فقد تصدّى لمقاومة التّجنيس، وأصدر نداء إلى الشعب يقول فيه :

(أيها الشعب العزيز

حافظ على دينك، وقوميتك، وجنسيتك، وتبعيتك، وإياك أن تتجنّس ! ولو وعدوك بإنزال مائدة من السماء، فإنك إن فعلت ذلك، فستجني على دينك، ومجدك، وعلى الأجيال القابلة من نسلك، وتتسبّب في قلّة التّرحّم عليك، حيث أضعت لهم جنسيتهم، وتبعيتهم، فكانوا لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء!).

كما دعا الشيخ الجادوي إلى حرية الصّحافة، وإلى حرية الرّأي والفكر، حيث يقول :

(... أيّة حكومة تضايق حرية الصّحافة، فهي تخشى المباحثة، ولذا فهي ذات شبهة !)

ويقول أيضا :

(... لا يجوز حرمان أحد من إبداء رأيه بدعوى الحذر من أن يكون له فكر مخطر...)

والجدير بالملاحظة أنّ هذا الكلام كتبه الشيخ الجادوي ضمن مقال طويل بعنوان (إنّه من سليمان وإنّه باسم اللّه الرحمان الرحيم)، وذلك إثر صدور جريدة (المرشد) من جديد بعد احتجاب لم يكن اختياريا، وإنما كان إثر حوادث الزلاّج التي وقعت في 7 نوفمبر 1911.

ونشير هنا إلى أنّ الصحافة العربية، ومن ضمنها جريدة (مرشد الأمة)، أصدر المقيم العام الفرنسي ALAPETITE قرارا بتعطيلها من 8 نوفمبر 1911 إلى شهر فيفري 1920 أي مدة عشر سنوات تقريبا.

وحتّى نضع نشاط الشيخ سليمان الجادوي الصّحفي في إطاره التاريخي، نشير إلى أنّه أصدر في حياته ثلاثة جرائد:

الجريدة الأولى : (المرشد)

وهي جريدة أسبوعية علمية سياسية قضائية مقرها 48، نهج باب بنات - تونس صدر أول عدد منها : في 23 نوفمبر 1906، وقد حوكم صاحبها في شهر مارس 1907 بتهمة الثّلب، وعادت للصدور في شهر جويلية 1907، ثمّ تعطّلت بقرار إداري في 13 ديسمبر 1908.

الجريدة الثانية : (أبو نواس)

وهي جريدة أسبوعية فكاهية هزلية سياسية واجتماعية، تصدر كلّ يوم جمعة باللغة العربية والدّارجة صدر العدد الأول منها يوم الثلاثاء 17 أوت 1909.

وتوقّفت عن الصّدور في 22 أفريل 1910.

الجريدة الثالثة : (مرشد الأمة)

وهي جريدة علمية سياسية تخدم الملّة والوطن. وقد صدر العدد الأول منها في سنة 1909، وآخر عدد صدر في 10 ديسمبر 1950 وجملة الأعداد التي صدرت من هذه الجريدة 243 عددا وقد كانت في بداية صدورها (1909) أسبوعية، ثمّ أصبحت نصف شهرية، ومنذ سنة 1920 أصبحت من جديد أسبوعية.

وتعطّلت بقرار مؤرخ في 8 نوفمبر 1911 إثر حوادث الزلاّج كما أسلفنا ثم عادت للظّهور في سنة 1920، وتعطلت مرة أخرى إثر صدور العدد 121 بتاريخ 29 نوفمبر 1925

بقرار صادر في 5 ديسمبر 1925، ولم يرفع قرار التّعطيل إلاّ في 3 جويلية 1936، فصدرت من العدد 122 إلى العدد 232، وتعطّلت مرة أخرى، ثمّ عادت للصّدور في شهر سبتمبر 1948، وهو العدد 233، وتوقّفت بعد صدور العدد 243 في 10 ديسمبر 1950.

هذه لمحة خاطفة عن نشاط الشيخ سليمان الجادوي الإصلاحي والصحفي والوطني، نستنتج منها ما كان لهذه الشخصية المتميّزة من مقدرة فائقة، وشجاعة نادرة، وذكاء وقّاد، استطاع بفضل ذلك أن يسهم في خدمة القضية الوطنية بفكره وقلمه، معتمدا في كل ذلك على إمكاناته الخاصة، دون أن يتلقى إعانة من أيّ كان، ولا مساعدة من أيّة جهة.

وهذه هي العصامية التي ترقى بصاحبها إلى صفّ النّخبة من أبناء المجتمع.

أما روحه الوطنية الصّادقة، فقد أهلته لأن ينتخب عضوا في اللجنة التنفيذية عند تأسيس الحزب الحرّ الدّستوري سنة 1920، وكان في مقدّمة وفد الأربعين إلى الملك محمد الناصر باي لطلب إعلان الدّستور.

وقد بذل إلى جانب ذلك في سبيل القضايا الوطنية والإسلامية جهودا سيسجّلها له التّاريخ بمداد الفخر والتقدير والاعتزاز.

ولعلّ من المفيد أن نستشهد برأي العلاّمة المرحوم الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في الشيخ سليمان الجادوي الذي أورده في كتابه (الحركة الأدبية والفكرية في تونس) حيث قال :

(الشيخ سليمان الجادوي صاحب جريدة «مرشد الأمة» روح كتابته روح حماسة إسلامية وطنية، ينهج في تحريره نهج التذمّر والاحتجاج، ويحتدّ في مهاجماته ويتذمّر

ويستقصي الحجج لموضوعه من كلّ وجه، ولو كان على غير مبدئه، قصدا إلى إفحام الخصم، ويبدو في طريقته الثّبات على المبدإ إلى حدّ التّطرّف، واليقين المطلق في النّظريّة التي يدافع عنها، وأكثر مقالاته نقد لمواقف رجال الحكم وتصرّفاتهم، بمقياس الخلق الدّيني والمبدإ الوطني، وأسلوبه البياني عربي متين، يستمدّ من الثقافة الدينية، ويبالغ في تشنيع الصّور، ولا يقصد في كشف الحقيقة، على ما يتصوّر فيها من شرّ...) الخ...

ولقد أحسن الشيخ سليمان الجادوي صنعا عندما انتخب مجموعة كبيرة من المقالات الهامّة التي نشرت في جريدة (مرشد الأمة) وأصدرها في كتاب ضخم يشتمل على 784 صفحة، سماه :

(الفوائد الجمّة، في منتخبات مرشد الأمة) نشره على نفقته الخاصة سنة 1925، وحلاّه بصورته التي كتب تحتها :

لمّا استحال بأن أكون مع الجميع مدى الزّمان
أبقيت من ذاتي مثالا قائلا هذا فلان
خدم الصّحافة مرشدا وكفى العيان عن البيان

وقد أحدث صدور هذا الكتاب صدى عميقا في نفوس رجال الأدب والفكر والسياسة في ذلك العهد، ممّا جعل فطاحل الشعراء تجود قرائحهم بقصائد عصماء في تقريظة والتّنويه به وبمؤلّفه، من ذلك القصيد البليغ الذي نظمه الشاعر الكبير المرحوم الهادي المدني حيث يقول فيه :

يا من يطالع هذا الكتاب بشراك بشرى
رأيت دهرا عليه الزّمان أسدل سترا
كيف انقضى وأتت بعده الحوادث تترى
رأيت ما قد أتاه الطّغاة ظلما وقهرا

وكيف أودعوا الحق والمساواة قبرا
وكيف كان جهاد الكتّاب إذ ذاك وعرا
وكم تحمّل منهم دور العزيمة إصرا
فلم يزدهم إلاّ عزما وجداً وصبرا
فأنت تنظر تلك الأ مور عصرا فعصرا
وتتبع السرّ في الحادثات شبرا فشبرا
تخالها صورا رتّبت فأودعتها سفرا
حتّى ترى كيف أن الإ رهاق فينا استقرّا
وإن شكل الحكومات لم ننل منه أمرا
فما تقادم عهد إلاّ ونزداد شرّا
وإنّ إحساسنا لم يزل كما كان جمرا
وأنت مع ذاك تتلو ما قيل إذ ذاك شعرا
فقد تعلّمت من ذا الكتاب شعرا ونثرا
(أبو نواس) بدا فيه وهو يعصر خمرا
فكم أفاض لدى النّقد من مقاله سحرا
فإن أردته حلوا وإن أردته مرّا
وكم وكم ألقم النّا كثين العهد حجرا
لكنّه بانتقاد قد جلّ في الحسن قدرا
برقّة وبلطف تخاله سال تبرا
وحنكة ومرامي جلّت لدى العدّ حصرا
وهكذا (مرشد الأمّة) الذي حاز فخرا
ذاك الذي نال في الشّرق كلّه خير ذكرى

فكم وكم قد قرأنا مقالة له غرّا
وكم له من ردود لها المعاند خرّا
قد نسّقت بانتظام على الجواهر أزرى
كتابة لو رآها (عبد الحميد) أقرّا
قد دبّجت بيراع منها المراوغ فرّا
تحكي عصاة الكليم التي بها جاز مصرا
فكم بها شقّ بحرا لكنّه كان حبرا
وكم بها هشّ عن قو مه وزحزح وقرا
لكنّه ليس فيها له مآرب أخرى
وكم له من خيال إلى الحقيقة جرّا
يريك منه بلطف ما ذا الخؤون أسرّا
وكم له حكمة أبر زت إلى النّاس سرّا
فيها الحقيقة لاحت لكلّ من جاء يقرا
آياته اليوم أضحت لديك تنشر نشرا
فما كان أحرى بأن يحـــفظوك ما كان أحرى
اسهر عليه إذا ما أردت تشحذ فكرا
انشق وقل إنّني قد نشقت ذا اليوم زهرا
وإن أردت تضمّخ وقل نضمّخت عطرا
اقرأ وعاود إلى أن تكون عاودت عشرا
فذا الكتاب عزيز مذ أن رأيناه دهرا
حمدا وشكرا (سليمـــان) هاك حمدا وشكرا
أرضيت دينك والتّو نسيّ والشرق طرّا
أعطاك ربّك فخرا وزادك اللّه أجرا

أمّا أمير الشعراء المرحوم محمد الشاذلي خزندار، فقد كتب قصيدا رائعا نقتصر منه على هذه الأبيات :

يقول فيه :

لئن جاد شعرك فالجادوي مثال الإجادة فيه بدا
إليك (الفوائد) منه التي فتحنا القلوب لها واليدا
وحسبك بالصحفيّ قيمة إذا كان للأمّة المرشدا

هذاوفي يوم الثلاثاء 20 نوفمبر 1951 قرأ الشعب التونسي في جريدة النهضة هذا الخبر :

الله أكبر

في ليلة الإثنين 19 نوفمبر 1951 فجعت أوساط الصحافة الوطنية بوفاة الكاتب الكبير الشيخ سليمان الجادوي صاحب جريدة (مرشد الأمة) الذي عرفته الأوساط التونسية من أوائل الصحافيين الذين كافحوا زمنا طويلا في سبيل القضية الوطنية بأقلامهم وأموالهم وتفكيرهم.

قد وافاه الأجل المحتوم فجأة بمنزله بحمام الأنف، وشيّعت جنازته في موكب حافل بأصدقائه وعارفي فضله، ونخبة من رجال الأمة وأعيانها.

رحم اللّه الفقيد سليمان الجادوي، وأغدق على قبره شآبيب الرحمة والرضوان.

الجيلاني بن الحاج يحيى
ملتقى الشيخ سليمان الجادوي
الدورة الأولى أجيم جربة أفريل-ماي 1993

مساهمة الشيخ سليمان الجادوي في بعث الصحافة الهزلية التونسية من خلال جريدته «أبو نواس»

1 - ظهور الصحافة الهزلية في تونس :

تحتلّ الصحف الهزليّة النقديّة مكانة مرموقة في تاريخ الصحافة العربية التونسية، بالنظر إلى ما قامت به من دور بارز في التطوّر السياسي والاجتماعي والثقافي الذي شهدته بلادنا منذ مطلع القرن العشرين. وقد خاضت الصحف الهزلية التونسية غمار المعركة السياسية والاجتماعية على واجهتين متميّزتين : واجهة الكفاح السياسي ضدّ الاستعمار والدفاع عن الشخصية التونسية، وواجهة الإصلاح الاجتماعي والتربوي. واغتنمت لبلوغ هذه الغاية المزدوجة صدور الأمر المؤرخ في 2 جانفي 1904 القاضي بإلغاء الضمان المالي المسبق الذي كان مفروضا على الصحافة العربية منذ انتصاب الحماية كما استغلت إقبال التونسيين على مطالعة الصحف العربية التي كانت تقرأ في المقاهي بصوت عال وسط مجموع من المواطنين الأميين المتلهفين على متابعة ما يجري على الساحة السياسية من أحداث في تونس وخارجها. وكانت هذه القراءة الجماعية منطلقا للمناقشات السياسية العمومية. فرأى رجال الإصلاح أنه لا حرج من استعمال اللغة الدارجة في الصحافة إلى جانب اللغة العربية الفصحى لجلب عدد أكبر فأكبر من القراء قصد توجيههم وتوعيتهم. كما تفطن بعض رجال الإعلام إلى ما يمكن أن تقوم به الصحافة الهزلية من دور

بالغ الأهمية لتحقيق هذه الأهداف الإصلاحية والتربوية، واقتدوا في ذلك بالصحف الفكاهية العربية التي ظهرت في مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر، مثل جريدة *أبو نظارة* (1876) وجريدة *التنكيت والتبكيت* (1881). ويعتبر الشيخ سليمان الجادوي من أوائل المهتمّين بالصحافة الهزلية في تونس بعد الشيخ الهاشمي المكي وبن عيسى بن الشيخ أحمد.

فقد أصدر الهاشمي المكّي في 19 جويلية 1908 جريدة «*أبوقشة*» التي تمثّل أوّل تجربة جدية في ميدان الصحافة الهزلية في تونس وأوّل جريدة عربية استعملت اللغة الدارجة حتى تتمكن من مخاطبة عموم المواطنين وتوجيههم، لأن استعمال اللغة العامية في الكتابة لم يكن شائعا قبل ذلك التاريخ. ولكن بعد مدة قليلة من صدور الجريدة، ضاقت السلط الاستعمارية ذرعا بانتقاداتها فأصدرت قرارا مؤرخا في 27 جانفي 1909 يقضي بتعطيلها. ذلك أن إلغاء الضمان المالي لم يمنع حكومة الحماية من ممارسة صلاحيتها في تعطيل الصحف العربية كلّما تجاوزت الحدود المسموح بها.

وسدّا للفراغ الذي أحدثه احتجاب «*أبوقشة*» أصدر بن عيسى بن الشيخ أحمد في 15 جويلية 1909 جريدة هزلية جديدة بعنوان «جحا». وبعد ذلك بشهر أصدر الشيخ سليمان الجادوي جريدة «*أبو نواس*» لتعويض جريدة *المرشد* التي عطّلتها الحكومة بقرار صادر في 13 ديسمبر 1908.

2 - جريدة أبو نواس : 1909-1911.

وقد ظهر العدد الأوّل من جريدة *أبو نواس* يوم 17 أوت 1909 في أربع صفحات تحت عنوان «أبو نواس جريدة أسبوعية فكاهية هزلية تصدر يوم الإثنين من كلّ أسبوع». وقد سارت الجريدة منذ صدورها على منهج جريدة *أبوقشة* المعطّلة، فكانت تقاوم الاستعمار وأذنابه وتدعو إلى الإصلاح

الديني والاجتماعي حسب تعليمات الشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وتحثّ التونسيّين على مقاومة البدع والعادات الفاسدة وتخليص الدين الإسلامي الحنيف مما علق به من خرافات وأوهام.

وقد حرص سليمان الجادوي على توضيح الأهداف التي ترمي الصحافة الهزلية إلى تحقيقها، فصدّر العدد الأوّل من جريدته بمقال احتلّ كامل الصفحة الأولى تحت عنوان : «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمان الرحيم»، جاء فيه بالخصوص :

«معشر القرّاء، لو أنّ الجرائد الهزليّة ما أحدثت إلاّ للتسلية والفكاهة وجلب دواعي الانشراح، لما أتحفناكم بهاته الجريدة، ولكنها لا تقتصر على هذه الفوائد الثانوية، بل إنها تحيي النفوس الخامدة وتربّي الأفكار الجامدة وتقوّي الإحساس وتبثّ الشعور وتزيد في الإدراك.

فمنزلتها ليست بالسّافلة، إذ هي من أعظم عوامل التربية الاجتماعية لأنّها تشخّص المحاسن في أجمل صورها وتمثّل القبائح في أتعس مناظرها وتهوّلها... فالجرثومة قد تكون فتّاكة، ولكن بخفائها عن الأعين واستصغارها لا تؤخذ الاحتياطات اتّقاء من ضررها، ومتى ظهرت بالمرآة المكبّرة فإنها تدخل الرعب في القلوب...

تلك هي منزلة الجرائد الهزلية في الهيئة الاجتماعية. فلا عجب إذا قلنا إنها من أجلّ الوسائط للخدمة القومية بل أقرب طريق للإصلاح، لأنّ الرمز خير من الهمز، لمن كانوا يفقهون، وبالإشارات يفهمون، لأنّ العقلاء تكفيهم الإشارات وتغنيهم عن العبارات»...

وقد تهافت القراء على مطالعة جريدة *أبو نواس* ورحّب بصدورها الأدباء والشعراء. من ذلك التقريظ الذي نشره محمد الجعايبي في «*الصواب*» ونشرته جريدة *أبو نواس* في

عددها الثالث الصادر في 30 أوت 1909. وقد جاء فيه بالخصوص ما يلي :

«أصدر رصيفنا البارع الشيخ سليمان الجادوي صحيفة تحت عنوان «*أبو نواس*». وهي جريدة هزلية الظاهر جديّة الباطن، جرى فيها على أسلوب كبار الكتاب في هذا المضمار. فكانت وستكون أفضل ما أخرج للناس في هذا الموضوع. ولا غرو أن رأينا الشيخ سليمان فارس الميدان في الهزليات، بعدما عرفناه وعرفه العموم كاتبا مجيدا ووطنيا صادقا في الجدّ. فنرحب بأبونواس ونرجو أن تتّبع مسلكا قويما في تقويم الأخلاق وإصلاح العادات الفاسدة بطريق الهزل».

أما الشاعر الشعبي قاسم شقرون، فقد نشر بالعدد السادس، الصادر في 20 سبتمبر، 1909 ملزومة للترحيب بالجريدة، قال فيها :

جريدة بونواس — عزّ الجرايد ياناس
هزليّـــة — أحسن من ألف سياسيّة
فيها معاني مخبيّة — لكن تحبّ الفركاس
فركسهـــا — طلّع المعاني واعكسها
هذي الجريدة رايسها — هو كبير الريّاس
أقـراهـــا — ياحرّ تفهم معناها
نعم الغنيمة تلقاها — ذهب في وسط نحاس
فسّـرهـــا — إياك تاخذ ظاهرها
الفايدة في باطنها — راها الذخيرة في السّاس

وقد كان سليمان الجادوي يشرف بنفسه على إدارة الجريدة وتحرير أغلب فصولها المحررة سواء باللغة العربية

الفصحى أو باللغة الدارجة. وكانت افتتاحيته المحررة بالفصحى تحتل كامل الصفحة الأولى من كلّ عدد، تحت عنوان باللغة الدارجة مناسب للمقام مكتوب بأحرف غليظة مثل :

- ليلو قايم ونهارو نايم * هكّة تعيش البهايم
(عدد 7-27 سبتمبر 1909 - 13 رمضان)
- اللّي يعمل بيدو * اللّه يزيدو
(عدد 9-15 نوفمبر 1909)
- اللّي يسرق صمعة * يحفر لها بير
(عدد 12-28 جانفي 1910)
- قول ما تحبّ * تسمع ما تكره
(عدد 13-4 فيفري 1910)
- كلّ الجمال تتعارك * إلاّ جملنا بارك
(عدد 16-23 ديسمبر 1910)

وقد سخّر الجادوي جريدته لنشر الفصول النثرية والملزومات والأزجال الرامية إلى انتقاد عدّة مظاهر من الحياة السياسية والاجتماعية في عصره والدعوة إلى نشر الأخلاق الفاضلة ومقاومة البدع والعادات الفاسدة المنافية لروح الإسلام مثل الاعتقاد في الأولياء والصالحين وزيارة الزوايا والأضرحة والتقرب من أصحاب الكرامات وكذلك حثّ الشعب على تربية أبنائه تربية إسلامية صميمة وعدم الانسياق في مهاوي الرذيلة والتشبّه بالغرب.

فقد كتب في إحدى افتتاحياته المخصّصة لمثل هذه المواضيع ما يلي :

«آه من هذا الزمن الذي فتحت فيه أسواق الفجور

وانتشرت فيه المدنيّة الغربية التي لم يأت شرعها إلاّ بأضراب تلك البليّة»...

ونشرت الجريدة في العدد الثالث الصادر في 30 أوت 1909 ملزومه بإمضاء «الشيخ القيرواني» جاء فيها ما يلي :

ثمّاش من يندب ويبكي علينا نفذ القضاء ما عاد ينفع فينا
رانا متنا ثمّاش من يندب على أمّتنا
النّفس اللعينة بشرها هلكتنا ولا عاد شي في الدهر من يهدينا
صنايعنا ماتوا جاع الفقير بعيلتو وبناتو
برّ النصارى جاب ماكيناتو والجهل راهو عمالنا عينينا
سناجق تذري والناس للبدع صبحت تجري
هذي مصايب حار منها فكري ما لقيتشي حتّى دواء يشفينا

وفي ملزومة أخرى صادرة في العدد الثاني عشر المؤرخ في 28 جانفي 1910، من نظم شاعر شعبي من مدنين لم يذكر اسمه جاء فيها بالخصوص :

يا ساكنين الخضرا أنتم بيكم جميع أمراضنا تبرا
ومعاكم سوسة والمدينة صبرا قدّاش هذا الصبر يا خويتنا
يا ساكنين في ماطر بنزرت وباجة عدادكم تتكاثر
ثمّاش منه على المصالح ساهر يتفطّن يشوف كيف حالتنا
يا ساكنين صفاقس جرزيس وجربة ومدنين وقابس
قوموا انظروا شوفوا الأمم تتنافس في المتجر والتعليم واحنا رقدنا
يا أهل المهديّة وعمالة تونس بالتمام جملية
غيثوا بربّي كبدتي المشويّة بحزم وجدّ وكدّ في خدمتنا
هذي الغمّة اجلوها باللّه يا رجال الهمّة
انتوما قبل اتقدّموا بالأمّة وقولولهم من بعد : تبّعو الجرّة

وكان يغلب على كتابات الشيخ سليمان الجادوي النقد السياسي والإجتماعي، فكانت عينه يقظة قلّما يفلت منها جانب من جوانب الحياة السياسية التي تستحقّ السخرية والنقد، فقد نشر في العدد العاشر الصادر في 29 نوفمبر 1909 ملزومة للردّ على بعض اليهود التونسيين الذين قاموا عندئذ بحملة واسعة النطاق، مطالبين بأن يكونوا راجعين بالنظر إلى المحاكم الفرنسية، لعدم ثقتهم في القضاء التونسي. فتوجّه بنداء إلى مواطنيه قائلا :

يا غافلين تنبّهو برزانا وتأمّلوا فعل اليهود معانا
غلطوا ياسر واللّي خذوا عليه عقلو خاسر
هذا سماجة قام جا يتجاسر خلّى القوم الكل في مرشانة
ما تظنّوشي القوم الكلّ ما حبّوشي
المكوث تحت أحكامنا ماهوشي هذي أفكار القوم أهل رزانة
توجد منهم أفراد ياسر إن تجي تسألهم
عن هذا الأمر الكل تاخذ منهم أفكار هاالطالبين إدوانة

ولما فشلت مساعي اليهود صدّر الشيخ الجادوي الصفحة الأولى من العدد العاشر الصادر في 7 جانفي 1910 بالعنوان التالي :

طاروا وجنّحوا لا نجحوا ولا ربحوا

وفي العدد الخامس عشر الصادر في 22 أفريل 1910 نشر سليمان الجادوي فصلا تحت عنوان :

تمسّكوا بمطالبهم اللّه لا يخيّبهم

وقد أيّد فيه الإضراب الأوّل الذي شنّه الطلبة الزيتونيون ابتداء من 15 أفريل 1910 للمطالبة بإصلاح برامج التعليم المعمول بها في الجامع الأعظم. وانتقد انتقادا

لاذعا أعضاء النظارة العلمية بجامع الزيتونة والشيوخ المحافظين المعارضين لكلّ برنامج إصلاحي.

وكان صاحب جريدة «*أبو نواس*» لا يتردّد في انتقاد رجال السلطة وكبار الموظفين الذين يسيؤون معاملة منظوريهم التونسيين، وذلك سواء بالتلميح أو بصريح العبارة. من ذلك أنه نشر في عدة حلقات متسلسلة رواية خيالية تهكّم فيها على مدير الصادقيّة، آنذاك الذي سمّاه «فخامة المسيو دلماس» وقد اعتبر الأستاذ محمد الصالح الجابري هذه الرواية من أولى المحاولات التونسية في ميدان القصّة القصيرة.

كما أصدر الجادوي في العدد السادس عشر الصادر في 22 ديسمبر 1910 فصلا بعنوان «على وضوك ياسي خليفة» انتقد فيه بأسلوبه الساخر متفقد اللغة العربية في المدارس الابتدائية السيد الصادق التلاتلي الذي أهان بعض المعلّمين التونسيّين الراجعين إليه بالنظر. وقد استهلّه بقوله :

«يقول المسيو دي كارنيار (زعيم المعمّرين الفرنسيين) إن التونسيّين لم تكن فيهم كفاءة للوظائف، وإنّ الأمان والاطمئنان منفيّ عنهم البتّة، وهو غلط منه، وإن كان منه الغلط لا يستغرب بحال. فما هي حجّته وهاهو بين أيدينا متفقّد التعليم العربي فضيلة العلاّمة المسيو الصادق التلاتلي، وقد أظهر من البراعة في خدمته والتفنّن العجيب في حفظ ناموس وظيفة جنابه، ما سرّنا وسرّ الإدارة وسرّ الناس جميعا...». ثم قدّم الكاتب نماذج من تصرّفات المتفقّد التي فيها مسّ بكرامة المعلّمين.

ويلاحظ القارئ الأسلوب النّقدي الذي التجأ إليه سليمان الجادوي حتى لا يقع تحت طائلة القانون، حيث كان نقده في قالب مدح، فلا يستطيع أيّ أحد اتهامه بالثلب وهو الأسلوب ذاته الذي استعمله محمود بيرم التونسي بعد ذلك

بأكثر من ربع قرن لنقد نفس الشخص. فقد كتب في العدد الصادر في 29 أكتوبر 1936 من جريدة «*الشباب*» مقالا للتهكّم على الأستاذ الصادق التلاتلي جاء فيه بالخصوص ما يلي :

«صادقنا التلاتلي زان تونس ونوّرها وشرّفها بشخصه وعلمه وعمله. شخصه يشبه شخص الماريشال جوفر في الملامح والمشية والنشاط. وهو يشعر بهذه المزايا ولا يسمح لأحد بتجاهلها. كان إذا دخل المدرسة ليفتّشها نادى المعلم أمام التلامذة وأمره أن يخلع له معطفه ويعلّقه على «الرشاقة» (المشجب) ولم يمتنع عن خلع معطف أستاذنا إلاّ معلّم واحد إدّعى أن هذا العمل مسقط لكرامة المعلّمين. فرماه الأستاذ بتقرير رسمي كاد يقطع عيشه، لولا أن المعلم عاد فقدّم الخضوع وتعهّد بأخذ معطف الرئيس وتعليقه على «الرشّاقة».

ولو كنت أنا في مكان هذا المعلّم لنزعت لرئيسي معطفه وحذاءه ووضعتهما على رأسي لا على «الرشّاقة».

وبنفس الأسلوب انتقد صاحب «*أبو نواس*» في العدد السادس عشر القرار المؤرخ في 5 ديسمبر 1910 والقاضي بتعطيل جريدة «*النصر*» لصاحبها محسن زكرياء. فاستهلّ مقاله بنقل ذلك القرار بحذافيره، وهذا نصّه :

«بعد اطّلاعنا على الأمر العلي المؤرخ في 6 ماي 1893، وحيث أن الجريدة المسمّاة بالنصر أدرجت بعددها الحادي عشر المؤرخ في 25 نوفمبر 1910 تحت عنوان «الجمعية الشوريّة» فصلا تضمّن تهديدات موجّهة على الدولة من شأنها التشويش على العموم، أصدرنا قرارنا بما يأتي :

حجّرنا طبع ونشر وجولان جريدة النصر».

ثمّ علّق الجادوي على هذا القرار بقوله :

«لعمري أنّ هذا القرار قد جاء آية في الحكمة والسّداد لإتيانه طبق القوانين والأوامر العليّة كما رأيت، مشيرا للفصل الذي أوجبه بالسواء بلا زيادة ولا نقصان، خلافا لما نعهده سابقا من القرارات التي تعطّلت بها الصحف كالزهرة والمزعج وسبيل الرشاد والمرشد والرشديّة والصواب والمضحك وأبوقشة والإسلام والمنصف وجحا، فانها كانت بقرار يقتصر فيه على : «عطّلنا وحجّرنا». وهو ما يبشّر بأن نظام الدولة يزداد تحسينا على حسنه، وما الفضل في الحقيقة إلاّ لهذا العهد الأنور الميمون...».

3 - الصحف الهزلية الأخرى الصادرة من 1910 إلى 1911 :

تلك هي بعض عيّنات من الفصول النقديّة التي كانت تزخر بها جريدة «*أبو نواس*»، مثل غيرها من الصحف الهزلية التي ظهرت في تونس في العقد الأوّل من هذا القرن، ذلك أن النجاح الباهر الذي أحرزه الشيخ سليمان الجادوي في هذا الميدان قد شجّع كثيرا من الصحافيين التونسيين على إصدار جرائد فكاهيّة نقديّة على غرار جريدة «*أبو نواس*»، لا سيما وقد وجدوا في الأسلوب الهزلي وسيلة ناجعة لنقد السلطة الفرنسية ونظام الحماية دون التعرّض للإجراءات القمعية الموجّهة ضدّ الصحافة الحرّة، لما تسمح به السخرية والاستهزاء من تلميح وما يوفّرانه من تعابير لا يفهم مغزاها إلاّ أهل الذكر.

وبالفعل فقد صدرت انطلاقا من سنة 1910 عدّة صحف هزلية باللغة العربية نخصّ بالذكر منها :

أ) - جريدة *المضحك* التي أصدرها عبد الله زرّوق ابتداء من 26 جانفي 1910. وهي أوّل جريدة هزلية تونسية نشرت الصور الكاريكاتورية، إلى جانب الشعر الملحون

والنوادر والمحاورات الفكاهية المحرّرة باللغة الدارجة، وقد تضايقت منها السلط الاستعمارية فأمرت بتعطيلها بمقتضى القرار المؤرخ في 3 مارس 1910، ثمّ عادت للظهور في 3 فيفري 1911.

ب) - جريدة *ولد البلاد* التي أصدرها الصحافي الشهير البشير الفورتي صاحب جريدة *التقدّم* اليوميّة، وكانت هي الأخرى تنشر الصور الكاريكاتورية والنوادر الفكاهية والشعر الملحون، كالملزومات والقسيم والمسدّسات الخ... ولكنّها لم تعمّر طويلا، حيث صدر عددها الأخير في 23 جوان 1910.

ج) - جريدة جحجوح التي أصدرها بن عيسى بن الشيخ أحمد إثر احتجاب جريدته جحا التي تعطلت بقرار مؤرخ في 19 أكتوبر 1910 بتهمة الثلب، إلاّ أن السلطة الفرنسية قد حجزت العدد الأول من جريدة جحجوح الصادر في 20 أكتوبر 1910 قبل توزيعه.

د) - جريدة *الضحك* التي أصدرها بن عيسى بن الشيخ أحمد في 26 جانفي 1911 إثر تعطيل جريدة جحجوح، واستمرّت في الظهور إلى أن أوقفتها حكومة الحماية مع بقية الصحف الهزلية بما في ذلك بطبيعة الحال جريدة *أبو نواس*.

ذلك أن السلطة الاستعمارية قد أدركت، إثر حوادث الزلاّج التي اندلعت بالعاصمة التونسية في 7 نوفمبر 1911 ما تقوم به الصحف العربية عامّة والصحف الهزلية خاصّة من دور في تثقيف الجماهير وتوعيتها وتأليبها على نظام الحماية، فقرّرت تعطيل كافة الصحف التونسية الناطقة باللغة العربية، ما عدا جريدة *الزهرة* التي أصبحت في تلك الفترة صحيفة شبه رسميّة، ولم يرخّص للصحف التونسية في الظهور من جديد إلاّ في غضون شهر فيفري

1920 إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى، بعد احتجاب دام ثمانية أعوام وثلاثة أشهر.

حمّادي الساحلي
ملتقى الشيخ سليمان الجادوي
الدورة الأولى أفريل-ماي 1993

كفاح الشيخ سليمان الجادوي
من خلال منتخبات «مرشد الأمة»

توفي الشيخ سليمان الجادوي في نوفمبر 1951 ونعته الصحف التونسية آنذاك كالنهضة والزهرة والأسبوع والصباح فأبرزت كلّها دور الفقيد في النضال السياسي والاجتماعي بصحفه الثلاث : المرشد ثم مرشد الأمّة وأبو نواس.

وأصدق ما نعي به كان الترجمة المؤثّرة التي نشرتها صحيفة الأسبوع التي كان يديرها المرحوم نور الدين بن محمود، هذا النعي في شكل ترجمة مقتضبة نشر في عدد 3 ديسمبر 1951، فحيّي فيه كاتبه «شيخ الصحافة التونسية بلا منازع، وبقيّة السلف الصالح، الذي شارك في الحركة الوطنية والفكريّة وفي الحقل السياسي فكان من قرناء الثعالبي ومن مؤسّسي الحزب الحرّ الدستوري سنة 1920» وتعرّض إلى ما لقيه سليمان الجادوي من اضطهاد قائلا : «لقد جاهد بماله وعلمه وقلمه، وضحّى في سبيل الوطن فأوذي وعطّلت صحفه وعلّقت به القضايا وزجّ به في السجن».

وقد تبسّط الدكتور محمد حمدان في كتابه «أعلام الإعلام في تونس» في جهاد سليمان الجادوي فاستعرض كفاحه - إلى جانب غيره من روّاد الحركة الوطنيّة - ضدّ سلط الحماية التي كانت لا تسمح بحريّة التعبير إلاّ بمقدار وتتصدّى للصحافة الوطنية بأنواع الكبت والضغط والقمع.

وكان الشيخ الجادوي اقتنع بأن النضال الوطني بواسطة الصحافة الجريئة الشجاعة المقدامة جهاد متواصل وعزم لا يعرف الفتور والملل، وأنّ تعطيل الجرائد والمجلات ومحاكمة اصحابها ومعاقبتهم بالسجن أو بالغرامات الباهظة ينبغي أن لا يحولا دون إبلاغ آراء المصلحين وتوجيهاتهم ومواقفهم إلى كافة افراد الشعب، فعمد إلى صحيفته الثانية مرشد الأمّة فانتخب منها أبلغ الفصول وأنجعها في إيقاظ الأفكار وشحذ العزائم، ونشرها في كتاب على حدة بعنوان : «الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة».

فافتتح الكتاب بمقال «القوة في الاتحاد» (فيفري 1910) وختمه بفصل «سوء التصرّف الإداري» (ديسمبر 1924)، على أنّ الجريدة واصلت مسيرتها المتعثّرة المكبوتة المعرقلة إلى ما بعد هذا التاريخ، إذ احتجبت نهائيا قبيل وفاة صاحبها بنحو السنة.

هذه المنتقيات متنوعة المواضيع متعدّدة الجوانب، فنجد فيها التحليل السياسي الذكيّ، بل العرض الاقتصادي الرشيد المتقدّم عن عصره، إذا ما نظرنا إلى خصومات الدول المصنّعة اليوم حول الحواجز القمرقية وحريّة التجارة : فقد تفطّن شيخنا في بداية قرننا هذا إلى أنّ «قوّة الممالك قائمة على المصالح التجاريّة أكثر منها على الرغبة في امتلاك البلاد لغرض الفتح البحت والاستعباد الصرف » (فيفري 1907).

ونجد فيها التنديد باستخدام الدين لأغراض دنيويّة دنيئة وبسكوت رجال الدين عن ضروب الشعوذة التي يستخدمها الدجّالون «حيث كان ذلك كلّه بمرأى ومسمع من العلماء الحاملين لواء الشريعة، فالمصيبة في الحقيقة منهم لأنهم لم يغيّروا تلك المنكرات (ديسمبر 1906).

ونجد فيها أيضا الاستنكار الشديد للتحجّر الذهنيّ، فلا يتردّد - وهو الزيتوني الذي «لم ينقطع، كما يقول، عن جامع الزيتونة المعمور رغم انقطاعي عن الدراسة به» - عن انتقاد مشايخ الزيتونة الذين يقاومون تعلّم اللغات الحيّة والعلوم الصحيحة ويزهّدون فيها الطلبة، فيقول : «فما وجدت منهم إلاّ من يقول : لا ينبغي تعلّم العلوم العصرية كالجغرافية والهندسة والتاريخ والطبّ... أمّا اللغات الأجنبية فذاك في زعمهم إلحاد بالدين» والدين من هذا التعصب المقيت بريئ، فيختم الفصل بهذا الإنكار الشديد : «إذا كان العلماء بمثل هذه البساطة العمياء، فعلى أيّ حال يكون البسطاء ؟» (ديسمبر 1906). والتورّع عن تعلّم اللغات الغربية استمرّ والحقّ يقال، بعد كلام الشيخ الجادوي هذا، استمرّ حتى عام 1921 إذ نجد مثله في مجلّة الفجر في مقال يقول صاحبه : «منّا من لا يزال يعتقد أنّنا في غنية تامّة عن اقتباس العلوم الحديثة من الأمم الأروبية لتحقيق نهوضنا، بل ربّما توهّم أنّ تعلّم اللغة الفرنسية - لا سيّما إذا استتبع تعاطي الفلسفة أو الطبيعة أو نحوهما - ممّا يضرّ بالدين... هؤلاء معذورون بعاميّتهم السوداء، ونحن مسؤولون عن عدم السعي في إبادتها بالتثقيف والإرشاد»، هذا على الصعيد الداخليّ، أي فيما بينه وبين أبناء جلدته.

* * *

لكنّ الحدّة والصرامة، والجرأة والإقدام، والتهكّم والسخرية، كلّ هذا يصبّه في حملاته الشعواء ضدّ الحماية ورجالاتها - ويسميهم تارة «الحماة» تهكما بلفظ الحماية Protectorat، وتارة «السائدين» وهذه العبارة الأخيرة تترجم لفظة Les Prépondérants التي كانت تطلقها عليهم الصحافة الوطنية الناطقة بالفرنسية. وفي مقدّمة هؤلاء الأعداء المتسلّطين المستشرق لويس ماشويل Louis Machuel «الذي نصّبته الحماية مديرا للمعارف فإذا به مديرا لا للتعليم بل

للتجهيل، يغلق في وجه أبناء الأهالي أبواب المعرفة حتّى إنّه لا يوجد بمكتب الصنائع الموسوم باسم رئيس الجمهورية إميل لوبي Emile Loubet (ويعني الشيخ المعهد الفني بالعاصمة) إلاّ 16 نفرا من المتعلّمين التونسيّين، مع أنّ عظيم نفقاته من الكيس الصادقي (وهكذا تصبح أوقاف المسلمين وسيلة لتعليم أبناء الأجانب النصارى). أمّا سدّ المكاتب (أي المدارس والمعاهد) وقفلها بصخور الاستبداد فحدّث عن مدير المعارف ولا حرج ! فإنّه أبدى من أفانين حرمان التونسيّين من المعرفة ما لا يقدر عليه نيرون الجبّار ولا تيمور الظلوم، حتى كأنّ تونس لا تحميها فرنسا العظيمة الشأن، ولا تخفق في أرجائها مثلّثة الألوان» (فيفري 1907).

وقد نستغرب من صاحبنا، المعروف بشدّة الإباء والأنفة وتورّعه عن التمسّح بالأعتاب، نستغرب هذه الإشارة إلى العلم المثلث وإلى فرنسا الفخيمة. ولكن ما أبعده عن التملّق! فينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أنّ سياسة المثقّفين الوطنيّين إذ ذاك، وبعد ذلك الوقت، كانت تسعى إلى التمييز - أو على الأقلّ تتظاهر بالتمييز - بين فرنسا الديمقراطية صاحبة البيان العالميّ لحقوق الإنسان والمواطن، ورعاياها وممثّليها في تونس الذين يدوسون مبادئ الثورة الفرنسية بالأقدام. فهذه اللباقة، أو هذه الملاطفة السياسيّة، نراها في ترحيب مرشد الأمّة بالمقيم العام الجديد - ألابتيت Alapetite «الإنساني الحرّ» - وتحيّة المقيم السابق بيشون Stephen Pichon الذي ارتقى إلى وزارة الخارجيّة، وفي الإشادة بالبرلمانيّين الأحرار أمثال جان جورس Jean Jaurès، فيقول الشيخ الجادوي متفائلا : «والكلّ يتعشقون نهوضنا ويبذلون وسعهم في انتشالنا من حضيض الانحطاط إلى حيث السعادة والمساواة» (جانفي 1907)، لكن هيهات ! فإنّ هذا المقيم الإنساني الحرّ سرعان ما انكشفت حقيقته عن استعماريّ من الطراز الأوّل، وقد دامت عمادته أحد عشر عاما، فقاوم طموح الشعب التونسيّ

وتصدّى لمطالبه المشروعة، فغيّر الشيخ سليمان لهجته إزاءه وهاجمه بعنف، فنراه يجمع في بؤرة واحدة المقيم وسامي موظّفيه، والمفروض أنّهم يصدرون عن تعليمات حكومة باريس، يجمعهم مع المعمّرين وأصحاب الشركات والمصالح، فيبيّن أنّ الإقامة العامّة تأتمر في الواقع بأوامرهم وتطبّق ما يقترحه المعمّرون وممثّلهم دوكارنيار Victor de Carnières الناطق باسمهم في صحيفته «المنبر الفرنسي بتونس Le Forum Français en Tunisie ويتخيّل لهذا الغرض «لائحة دوكارنيريّة» – على غرار لائحة حقوق الإنسان – جاء فيها : «باسم الكنيسة، نحن، دوكارنيار، قيصر الإجحاف، وإمبراطور الاعتساف، نأمر حزب الخرّاب من أتباعنا وابننا تريدون Tridon (هو مدير جريدة دوكارنيار) بنشر دعوتنا وتنفيذ فصول لائحتنا العشرين، وهي :

«**الفصل الأوّل** : جدّوا إخواننا في وصف العرب بكلّ معرّة (وفعلا لا يخلو عدد من الجريدة المذكورة من نعوت عنصريّة مثل : العرب الكسلاء، أهل الوسخ والنفاق الخ).

«**الفصل الثاني** : اعملوا على صيرورة أراضي هذه الإيالة الينا، ولو بطريق الاغتصاب (وقد قاوم الشيخ سليمان الجادوي تسخير الأراضي وحلّ الأحباس لفائدة المعمّرين والشركات).

«**الفصل الثالث** : لا يلقّن العربي المعارف العصريّة مخافة أن يزاحمنا في أبواب الارتزاق من صناعة وفلاحة وتجارة (ولنلاحظ عرضا أن كلمة العربي l'Arabe تحمل على لسانهم شحنة عنصريّة تقزّزية كالتي تستعملها اليوم الصحافة اليمينيّة المتطرّفة ضدّ المهاجرين المغاربيّين، فقلّما يستعمل دوكارنيار وأمثاله نسبة «التونسيّ» التي تحيل إلى مفهوم دولة ذات وطن وسيادة). ويعلّق الشيخ على كراهيّة دوكارنيار للأهالي Les Indigènes في مصطلحهم فيقول : «علاوة على ما فاز بنيله من قفل المكاتب في وجوه

أبنائنا، وسلبنا وظائف شؤوننا، يريد دوكارنيار منّا أن نهاجر أو نموت ممقوتين، ولولا عدالة الجمهوريّة ذات الشأن، لاقترح ذبحنا بمدية الاغتيال كما فعل رهبان الإسبان مع مسلمي الأندلس» (أكتوبر 1907).

* * *

وقد يذهب بنا الظنّ إلى أنّ لهجة الشيخ لا تشتدّ إلاّ إذا خاطب أشخاصا خصوصيّين مثل دوكارنيار وطريدون، فلا يتعرّض بذلك إلى محاكمة من أجل ثلب الحماية ورجالها. والواقع أنّ جرأة الجادوي لا تقف عند هذه الفروق ولا يقرأ لهذا التمييز حسابا، بل نراه يهاجم بنفس الحدّة جماعات المعمّرين وسياسة الحماية في تفقير الأهالي وتجويعهم وإبقائهم على الجهل وتحجير الوظيفة العموميّة عليهم «وحرمانهم من الحقوق البشريّة، فحتّى تكسير الحجارة والترميم استأثرت بهما اليد الإيطالية بكلّ ما شيّد من المباني» (فيفري 1907).

وعبارة «الوطنيّين» عند سليمان الجادوي تأتي تأكيدا على الانتساب إلى الوطن، تونس، وابعادا لغير التونسيّين عن أن ينسبوا إلى تونس. ففي فصل قيّم بعنوان «الوطن للوطنيّين» يتغنّى الشيخ الجادوي بالشعار المشهور الذي أثبته جورج واشنطن Georges Washington في توطئة دستور الولايات المتّحدة فقال : أمريكا للأمريكانيّين، بعد أن أطرد «عن وطنه غزاة الإنجليز، فاستعذبت الأفواه هذه المقولة واسترسلت في ترديدها حتى كادت أن تلحقها بالآيات المقدّسة المرويّة عن الحواريّين» (ص 446 من الفوائد الجمة). ولا يخفى أنّ الشيخ الجادوي يترجم لنفسه ولمواطنيه شعار «أمريكا للأمريكانيّين» بشعار «تونس للتونسيين» ويتنبّأ بنجاح التونسيّين في إبعاد الغزاة الفرنسيّين عن الوطن كما فعل ج. واشنطن بالأنجليز.

كذلك نراه يستنكر تسمية نوّاب الأهالي، أي الوطنيّين أي التونسيّين كما رأينا منذ قليل، بطريقة التعيين من عَلُ، مع أنّ نوّاب السائدين يُختارون بالانتخاب العلنيّ، فيتساءل لماذا هذا الاختلاف في المعاملة، ويقول مستسلماً للأقدار : «وعلى كلّ حال، فأملنا أن يقع الاختيار على من توفرت فيهم شروط الشهامة والغيرة والدراية، وأن لا يكونوا من الموظّفين الذين يلتزمون بالسكوت للحفاظ على الوظيف، ولا من الجاهلين العاجزين» (مارس 1907). وهكذا يؤكّد شيخنا منذ تسعين عاما خلت، على مبدإ أساسيّ في التمثيل الشعبيّ : الانتخاب الحرّ النزيه، أو، إن كان لا بدّ من تعيين، فلذوي الإخلاص والكفاءة !

وأحسن ما يحتفظ به المرء من فصول مرشد الأمّة هو الدفاع القويّ عن حرّية الصحافة، والتأكيد على دورها في إيقاظ الشعب من سباته وإصلاح شؤون البلاد، فيقول : «الصحافة أنجع دواء لصداع التأخّر وجراثيم الانحطاط، هي حدّ باتر لعُقَد المشكلات، وأعظم وازع للجبابرة العتاة، وأكبر رادع للفراعنة الطغاة، فهي زمام النجاح، وبارق الفلاح، ورائد العمران، ومعجزة العرفان، وموقظة النومان، وقائد الإنسان إلى عيشة الرضوان، بها تنهض الأمم إلى شامخ القمم» (جانفي 1907). هذا التغنّي بفضائل الصحافة الحرّة، في هذه اللهجة الشعريّة التي ترفع الشيخ الجادوي إلى مرتبة الأدباء المنشئين، يدلّ في الحقيقة على أنّ هذا الضرب من الصحافة ما زال كالضالّة المنشودة، نطلبها فلا نظفر بها، فنراه من جهة أخرى يضع للصحافة الحقّ شروطا مازلنا نفتقر إلى تطبيقها، فيقول : «عليها أن لا تتزلّف للحوكومات، وأن لا تخدم الأغراض السافلة، وأن تقاوم المستبدّين، وتنبذ الاحتيال والتدجيل، «(وقد شنّ حملة ضدّ قاضي نابل وسليمان وشيوخ جربة أدّت إلى محاكمته وتعطيل صحفه) وعليها أن تدافع عن حريّة الفكر»، ويتجه

إلى الجمهور من سلطة وقرّاء ومواطنين فيدعوهم إلى مؤازرة الصحافة «بسماع شكواها واستجابة ندائها وترديد صداها، ذلك أنّ الصحافي عندنا هو بين السّجن والخطيّة والتوبيخ وسماع مرّ الكلام وقارص الملام». ولتطهير الصحافة وتوجيهها الوجهة الصحيحة يقترح «مؤتمرا مأمولا لمديري الجرائد العربيّة ويسطّر لهم برنامج عمل، فمن المواضيع التي ستدرس :

1) رفع الضغط على القلم فيما يكتب.

2) اكراه إدارة المعارف على نشر العلوم بين الطبقات الأهلية.

3) وهو المهمّ : تعديل الضرائب الدوليّة (أي التي تفرضها سلطة الحماية) عسى أن ينقص كيلو من قناطر الهم المقنطرة على كاهل الشعب التونسيّ.

4) ذمّ البدع التي أحدثها غلاة الأئمّة وعدُّوها من أصول الشريعة وهي من ذلك أبرأ من ذنب يعقوب، الخ» (نوفمبر 1907).

* * *

وبعد، فهذه نماذج من كفاح المرحوم الشيخ سليمان الجادوي في ميدان الصحافة الوطنيّة، وعيّنات من فصوله الممتعة أحيانا، القويّة اللاذعة دائما. نضال بالقلم والمال - وقد ضاعت تجارته بين السجن والغرامات والتنقل بين الأقطار والمدن لجمع التبرّعات والاشتراكات حتى يواصل الجهاد - دام قرابة خمسين عاما ولم يفتر إلاّ حين قعد بالشيخ المرض، وإنّ لشباب اليوم لأسوة في سليمان الجادوي رحمه اللّه وعبرة في مسيرته النضاليّة.

محمد اليعلاوي

ملتقى الشيخ سليمان الجادوي

الدورة الأولى - أجيم جربة

أفريل - ماي 1993

محمّد فريد بن غازي

استجابة لدعوة جمعية صيانة الجزيرة لأهل الفكر والثقافة للمساهمة في ملتقى «من أعلام جربة» أقدّم هذا التعريف بأحد أعلام جربة المحدثين الذين برزوا في مجال الأدب والبحث العلمي ألا وهو محمّد فريد بن غازي فمن يكون ؟ وما هي أهمّ مؤلفاته ؟ وما هي مختلف مساهماته في الحركة الأدبية والفكرية ؟

1) من هو فريد بن غازي :

محمّد فريد بن غازي من مواليد غرّة فيفري 1929 بتونس العاصمة من عائلة جربيّة أصيلة منطقة فاتو جربة.

تلقّى تعلّمه الابتدائي بمدرسة خير الدّين الابتدائية من أكتوبر 1935 إلى جوان 1941 ثمّ واصل تعليمه الثانوي بمعهد «كارنو» ثمّ بالمدرسة الصّادقيّة أين درس على نخبة من الأساتذة : أحمد عبد السلام - محمد باكير - محمود المسعدي.

وتحصّل على ديبلوم الصّادقية سنة 1948 والتحق بالتعليم الابتدائي مديرا بالمدرسة العربيّة الفرنسيّة بمركز بوغدير بجهة صفاقس في أكتوبر 1948.

وفي أكتوبر 1949 تولّى إدارة مدرسة توجان الابتدائية (1)

(1) توجان قرية جبليّة تقع بالجنوب التونسي قرب مطماطة من ولاية قابس.

واجتاز امتحان شهادة الكفاءة البيداغوجية ولكنّه نجح في الكتابي وأخفق في التطبيقي.

وإشباعا لتوقه لمواصلة تعليمه العالي انقطع عن التعليم وسافر إلى فرنسا خلال صائفة 1950 وفي باريس قضى سنواته الأولى في المطالعة والترجمة ومتابعة المحاضرات في شتّى الاختصاصات وإعداد الدّراسات والمقالات موفّقا بين متطلّبات حياته الفكريّة والاجتماعية وبين 1954 و 1959 تمكّن فريد بن غازي من الحصول على الإجازة سنة 1955 ودكتوراه الدّولة في الآداب بعد سنة واحدة فقط (2).

وفي سنة 1959 عاد إلى تونس وهنا كلّف بالدّروس التطبيقية وأساليب البحث بمعهد الدّراسات العليا ثمّ مشرفا على الأبحاث الجامعيّة بدار المعلّمين العليا بتونس.

وكانت رغبته في أن يعيّن أستاذا محاضرا في الجامعة التونسية ولكن الوزارة لم تعيّنه فبدأ يشعر بالغبن ويمرّ بأزمة حادّة نجد صداها في قصيد نشرته مجلّة الفكر مذيّلا بخبر نعيه يقول في هذا القصيد :

إنّ هول الدّجى أناخ على قلبي فأمسى معذّبا مكلوما
وحوالي من بني الإنس أقوام يريدون أن أعيش سقيما
هم يريدون أن أعيش كئيبا خائر الحسّ والفؤاد عقيما
هم يريدون محو ذاتي من الأرض كما يصبح البناء رميما(3)

ونتيجة لتوالي الأزمات النفسيّة والجسمية

---

(2) أحرز محمّد بن غازي على الإجازة في الآداب (اللّغة والأدب العربي) 1956
* وديبلوم الدراسات العليا (أدب عربي) بملاحظة حسن سنة 1957 والتبريز في الآداب 1959.
* ديبلوم معهد الدراسات العليا (فرع العلوم التاريخية والفنية اللّغوية) 1957
* دكتوراه دولة في الآداب بملاحظة مشرف جدّا بإجماع لجنة ترأسها الأستاذ جاك بارك.
(3) من قصيد «البيت في العاصفة» منشور بمجلّة الفكر فيفري 1962 صفحة 51-52.

تدهورت صحّته فتوفى يوم 19 جانفي 1962، في عنفوان الشباب مخلّفا رصيدا هامّا من الإنتاج الفكري والأدبي.

مؤلفـــاتـــه

تتميّز مؤلفات فريد بن غازي بالثّراء والتنوّع، فلقد ألّف قرابة 300 عنوانا فيما بين الشعر والقصّة والمقالة الصحفيّة والأطروحات الجامعيّة (4).

1 – الشعر : بدأ غازي يكتب الشعر بالعربية والفرنسية منذ سنّ الرّابعة عشرة، وهاهو يتحدّث عن تجربته الشعريّة فيقول : {أخذت نفسي وأنا حدث بأن أكون رومنسيا جيّدا وكنت تلميذا «للامارتين وموسي» "Lamartine et Musset" أكثر منّي تلميذا لشوقي أو للشابي. ومن قصائد هذه المجموعة قصيدة «مدرستي» التي نشرت في مجلّة «الأديب» اللبنانيّة الغرّاء – أفريل 1950 والتي أقول فيها:

«كم سبتنا – إيه يا مدرستي – خضر رياضك
ومرحنا وسط مغناك القشيب
وشـــدت منـــا القلـــوب
وتأمّلنا القباب البيض في وقت الغروب
كلّلتها السحب الحمراء والشمس تهادي المغيب
غير أنّ هاجس الماضي البعيد
قـــد تلاشـــى في الأصيـــل

---

(4) أطروحاته : * مفكّرة خيّر من القرن الثاني هجري (الثامن ميلادي) عبد الله بن المقفع (أطروحة رئيسية) مجلدان 400 صفحة + 500 صفحة.

* أسرة من الشعراء البصريين : اللّحقيون (أطروحة تكميلية) 200 صفحة + 100 صفحة (نصّ عربي) + 50 صفحة (فهرس).

* أبو القاسم الشابي، شاهد عصره لأطروحة سوسيولوجية 370 صفحة أشرف عليها الأستاذ جاك بارك أستاذ بالكولاج دي فرانس.

واختفـــى عنّـــا كحـــلم مستحيـــل

* * *

لســـــت أنســـــاك وأنســـى

ظلّ نفسي يقرأ في الكتب درسا

يغفو منه في قرار القلب «إنجيل» الأمل

وعذاب اليأس في دنيا شقيّة

فتسحّ العين منّي عبرات صافيات قدسيّة

ومن حسن حظّي أنني لما بلغت التاسعة عشرة، ومع دخولي السنة النهائية بالمعهد الصادقي أتيح لي دراسة أكثر جدية لـ «فرلان» "Verlaine" والرّمزيين هزّني شعرهم إلى حدّ أنني صرت مأخوذا أشهرا عدّة فكان أن كتبت ديواني «زلحان». لماذا هذا العنوان الصّوفي ؟ لأن التصرّف الكوني قد ملكني حينذاك (كما أنّه سوف يملكني مرّة ثانية فيما بعد). ومن هذه المجموعة قصيدة «في فضاء العدم» التي نشرت في مجلة «الأنس» بتطوان، وقد طرقت جملة من المعاني الشعريّة «بتفنّن» ونشرت لي بعض القصائد الرومانسية والرمزيّة في مجلات وصحف وأذيعت بإذاعات عربية (تونس - باريس - لندن - بيروت) ولكن سرعان ما جدّت في حياتي قطيعة أنستني الماضي، وأصبحت الرّومانسية والرّمزيّة تبتعدان عنّي كالقارات العائمة إذ اقتضت حياتي اليومية أن أتبنّى الواقعية دون قيد ولا شرط، وقد كنت منذ ذلك الحين أشعر بأنّني بيني وبين شعراء إفريقيا الشمالية لونا ما فتئ يتسع حتّى يومنا هذا، جذبتني الواقعية فتفخّم صوتي وصار «إنسانيّا» كانت الحياة اليومية هنا أمامي تعلمني (فقد أصبحت مسؤولا عن جماعة بشرية حقيقية بها أطفال مرضى أو جائعون...) فكان أن دوّى صوتي بمجموعة شعرية كاملة هي «الرجل الحرّ»،

أهي مجموعة قصائد ثورية ؟ إنّ ما أعرفه هو أنّها «تأكيد للإنسان على الأرض وإنّ الحياة كما قلت في «اللّيل» "Night" قيمة يجب اعتبارها والتمسك بها وقد نشرت مجلّة «الحريّة» من هذه المجموعة قصيدتين أو ثلاث، ونشرت منها «الأديب» واحدة : (الإنسان).

ولكن حتّى مع الواقعية فقد دخلت حياتي نغمة جديدة لم أعهدها من قبل : إنّها اللاعقلانية. نعم، لقد كنت أعيش رغم اعتقادي الواقعي في الإنسان فترة من اللاّعقلانية لم أكن أعلم إن كانت صوفية أم جنسية نغمة جديدة نفذت : كانت نغمة سريالية... ولقد ولّدت من هذه الفترة من حياتي وأنا في العشرين مجموعة قصائد بكاملها هي «أخديد» وتخلّصت من السريالية التي كانت تفتح لي بعض الآفاق للتعبير عن عديد المعاني الجوهرية كما ترى في هذه القصيدة : «كتابة بالرّيح».

«أيها الموتى ...!

أيا من تحلمون دون رحمه

امنحوا قلبي خريفا ليس يسلى،

استدارت للرّياح عجله

تحت أنداء كتاب عارية

وسمحت هذه السريالية لعلمه جموح وشبقيّة مضطرمة بأن تزهر في شعر حسّي نفور مخيّر كباقة من الألوان البديعة.

وفي فرنسا (باريس 1950) بدأت فترة جديدة، حللت في بعض اللّيالي «بسان جرمان St Germain فتعرفت على إيزدور إيزون Isodore Ison، زعيم «مذهب الحرفية» الذي عرض عليّ أن أتعاون معه وأن أرافقه في السفر إلى المشرق وانضممت إلى مذهبه طيلة أشهر. وكان مثله الشعري

الأعلى أن ترجع الكلمة إلى الأرض.

وقلت في نفسي ذات ليلة من ليالي باريس : لم لا نعيد الكلية إلى الصوت ؟ وابتدعت مع بعض الأصدقاء مذهب الصوتية فتنبأ له بعضهم بعسر طويل وبعضهم بموت بطيء؟ أمّا أنا فقد تخلّيت عنه نهائيا بعد محاولات غير مجدية في عالم الكلمة لأنّني ارتطمت بجدار الصّمت شقائق النّعمان والحيّة L'anémone et la couleuvre وكوّنت جميع قصائد هذه الفترة مجموعة ثمّ استطاعت الحياة المجنونة الشاقة أن تخطفني، فانهمكت في الصّراع اليومي المأسوي السّامي سموّ قدر الذين عاشوا قبلنا في هذه المدينة التي كان «رامبو» يسميها «صحراء الحبّ» وكان غيره يسميها «صحراء باريس». كنت تارة صاحبا واقعيا وطورا مهلوسا، صوفيّا وشكلت بعض القصائد التي نشرتها إمّا في «المشرق» أو في مجلة «الأنس» التي تصدر بتطوان مجموعة «ألحان باريس»).

ولم يكن محمّد فريد بن غازي شاعرا فقط بل قصّاصا ناقدا أيضا.

2) القصّة والنقد القصصي :

إنّ القصص والروايات والمسرحيّات التي كتبها فريد بن غازي ليست منشورة ومنها «علياء» و «مع الزّمن» و«من المعذّبين في الأرض» (قصّة مهداة إلى الأديب طه حسين) و «الضّوء البعيد» و «الشريد» و «المغفّلون» (قصة شارك بها سنة 1961 في مسابقة جائزة علي البلهوان).

وكتب فريد مسرحيتين : ثورة الهند وهي مسرحية في خمسة فصول مقتبسة من كليلة ودمنة.

والمسرحية الثانية عنوانها «قطرة دم».

ولقد اهتمّ فريد غازي بنقد الإنتاج القصصي الصّادر

(5) أعمال ملتقى فريد غازي – فريد غازي شاعرا لمحمّد القاضي – دار صامد للنشر.

بتونس وبسائر الأقطار العربية وجمع نصوصا مختارة من قصّاص العرب المعاصرين (6) لفائدة الطلاّب وهذا بعض ما قدّمه لتلك النصوص نوردها لأنها تبرز جملة من أفكاره النّقدية.

* الأرواح المتمرّدة لخليل جبران : يصوّر جبران في هاته القصة ثورة عقل تقدّمي مستنير على الأوضاع البالية والعقليّات المتأخّرة.

* قصّة «زينب» لمحمّد حسين هيكل : فهو (أي الكاتب) يقصّ فيها، فعل روسو J-J Rousseau في قصّة «هيلويزة الجديدة» La Nouvelle Heloïse التي تشبع بها هيكل، حياة الريف المصري، وجماله، من خلال حياة ريفية جميلة. يغزوها غرام ناشيء فتى ظريف يوحي بالرّقّة والشّعر.

* قصّة إبراهيم الكاتب لعبد القادر المازني : يصور فيها المازني، حياته تصويرا مضحكا تملأه النّكت اللّذيذة يذكّرك بالقصّاص الإنقليزي جيروم كارل جيروم Jérôme Karl J والقصّاص التونسي علي الدّوعاجي.

* قصّة «الحاج شلبي» لمحمود تيمور : يقصّ علينا محمود تيمور قصّة رجل مزواج، يستعمل كلّ امرأة يتزوجها كوسيلة لربح المال، سواء خادمة في البيوت أو مرضعة عند الأسر الغنية.

* قصّة السّد لمحمود المسعدي : قصّة روائية يدور موضوعها حول مأساة الإنسان ضدّ قوى الطبيعة وضدّ الآلهة.

أبطالها رجل : غيلان، وزوجته ميمونة، نرى غيلان ينزل وميمونة بأرض تسكنها قبيلة تعيش على صعيد أرض

---

(6) قصاص العرب المعاصرون (مختارات من النصوص) منشورات الديوان التربوي (وزارة التربية القومية) تونس 1960.

جافّة... كلّها قحط ويبس... بها عين جارية ولكنّها عين تضيع بين الصّخور دون أن ينتفع بها النّاس فيحاول غيلان - وقد اختار جماعة من العمّال لعمله - أن يقيم سدّاً يستطيع به أن يوقف الماء الضائع، فيحيي أرض القبيلة الجافّة، ويخرج بها الأشجار والثمار والبقول والغلال ولكن المصائب تهاطلت عليه، فلا يأبه لها، ويستمرّ في عمله رغم أنّ زوجته - وقد أدركت الحقيقة - حاولت مرّات أنّ توقظ ذهنه وأن تحذّره من غضب الآلهة عليه فلم تفلح في إقناعه.

* قصّة الأرض لعبد الرّحمان الشرقاوي : تصوّر حياة قرية مصريّة وثورة الفلاّحين ضدّ الحكومة الإقطاعية والإقطاعيين الذين استغلوا عرق جبينهم وحاولوا ابتزاز الماء منهم، فهي ثورة الأرض المتعطّشة إلى الماء وثورة الشعب على الرّجعيّة العمياء.

قصّة الأرض مفيدة لتصوير الحياة القرويّة ومعرفة نفسيّة الفلاّحين وحياتهم كما هي في الواقع.

* السقاء مات ليوسف السباعي : يصوّر يوسف السباعي المنزلة البشرية التي يعيش عليها حيّ من أحياء القاهرة الشعبيّة : حيّ الحسينية - بطلها رجل عمله قراءة الأوراد في الجنائز، (شحاته) يأوي عند سقّاء (شوشة) وللسقّاء ابن صغير (سيّد) ندخل معه في ألعاب الحيّ وحياة الأطفال نراه يدافع، بعد موت شحاته عن والده «سقّاء الماء» لدى الحاجة زمزم صاحبه - التي لا تريد أن تدفع ما لأبيه الذي مرض مرضا كاد يفتك به. ولكن للموت طرق أخرى : ينهدم البيت الفقير على الوالد فيموت، وهكذا تنتهي القصة.

* قصّة «في بيتنا رجل» لإحسان عبد القدوس : يصور فيها الكاتب حياة طالب وطنيّ ... دخل منظّمة سرية من منظّمات الطّلبة التي تحارب الإنقليز فعرف السّجن السياسي ...

* عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم : يقصّ علينا توفيق الحكيم، في عصفور من الشرق، حياة شرقيّ بباريس، فننتقل مع الكاتب في أحياء باريس وندخل معه إلى زوايا قلب محبّ.

* القصّاص علي الدّوعاجي : ولد علي الدّوعاجي بتونس في مطلع القرن العشرين ومات بتونس، إثر مرض أصابه سنة 1954. وهو يجمع في شخصيّته الظّرف والبوهيمية والذّكاء السّاخر، والفطنة المتمرّدة. وعرفه النّاس قصّاصا روائيا، يعرف كيف يجعل القرّاء يستلذّون النكتة اللاذعة والبريئة في نفس الوقت.

ولعلّ أدبه يمتاز بكثير على أدب المازني لخفّة روح الروائي التونسي.

* قصّة «الحيّ اللاّتيني» قصّة شاب عربي ذهب إلى باريس ليتمّ تعليمه العالي... فعاش ثورة عميقة وأزمة حضارية وعرف الحبّ الدّامي الذي يتنافى مع المثل الأعلى الذي يرسمه الإنسان لنفسه ولذاته.

* القصّاص البشير خريّف : ولد بنفطة الجريد سنة 1917 وتربّى في جوّ تقليدي محض واشتغل سنوات طوالا في الصناعة التقليدية في دكّان من دكاكين الأسواق الإسلامية بتونس فعرف حياة «المدينة» في طابعها الشرقي وقد دخل عليها التطور بفضل الحضور الغربي فوصفها في رواياته خير وصف فكانت شهادة صادقة عن المجتمع التونسي المتطوّر بين الحربيين ... بأسلوب حيّ وبطريقة تذكّرك طريقة فلوبار ونجيب محفوظ ... على أنّه استعمل اللهجة التونسية في الحوار وأقحم كلمات عامية تتمتّع بالحياة وبتعبيرية كبرى فكان قدوة للقصّاصين في تونس وفي شمال إفريقيا فكوّن لنفسه مدرسة وأتباعا.

وهكذا لم ينقطع محمّد بن غازي عن الحياة الثقافية

والسياسيّة والاجتماعية فبرز مثقّفا مساهما في إثراء الساحة الفكريّة (7) بفضل مساهماته العديدة إلى أن فاجأته المنية يوم 19 جانفي 1962 فظلّت جلّ أعماله مخطوطة تنتظر التحقيق والنشر.

المنجـي فرحـات

جانفي 1994

---

(7) كان غازي مواكبا للساحة الفكرية والسياسية ونقتطف لكم مجموعة من عناوين المقالات التي كتبها :

- مستقبل الثقافة العربية في تونس. مجلّة الفكر. عدد خاصّ السنة الأولى عدد 9 جوان 1956 ص 72 - 82.
- قضيّة القصّة التونسية : مجلّة الفكر عدد خاصّ السنة الرابعة عدد 7 (أفريل 1959) ص 11 - 27.
- الأدب التونسي حيّ يرزق. مجلّة الإذاعة. 23 جويلية 1960 (عدد خاصّ بمناسبة الذكرى الثالثة لإعلان الجمهورية في تونس).

محمد بدرة

محمد بن عبد اللّه بدرة، ولد بتونس العاصمة في 26 أوت 1900، وهو ينحدر من عائلة أصيلة جزيرة جربة، من قرية المحبوبين بمعتمدية (ميدون).

زاول تعليمه الابتدائي بمدرسة السّلام القرآنية. وهذه المدرسة تقع في (دار بالزّي) بنهج المستيري، ومؤسسها ومديرها هو المرحوم محمد الشاذلي المورالي.

أما التعليم الثانوي، فقد كان بالمدرسة الصّادقية، وذلك من أكتوبر 1912 إلى جوان 1919. وكان من بين زملائه في الدراسة :

- الحبيب بورقيبة، ومحمد عطيّة، وعبد العزيز العروي، والبشير المتهنّي.

كما التحق في أكتوبر 1912 بمعهد كارنو لإتمام دراسته الثانوية، لأنّ المدرسة الصادقية، لم تكن تهيّء تلامذتها آنذاك لشهادة الباكلوريا.

وقد أحرز محمد بدرة على هذه الشهادة بجزأيها في سنة 1921.

ثم سافر إلى فرنسا في جولة خاصة، تعرّف فيها على عدّة شخصيات أدبيّة وفنية، ثم رجع إلى تونس، وشغل وظيفة مترجم ومنشيء بالوزارة الكبرى، ثم انتقل إلى وزارة العدل، وذلك من سنة 1921 إلى سنة 1926.

وفي سنة 1927، ترك الوظيفة، والتحق بحجرتي التجارة والفلاحة اللتين كانتا في محلّ واحد، نظرا لضعف ميزانيتيهما، واللتين كانتا تخضعان لسلطة كاتب وأمين مال فرنسيين، تعيّنهما إدارة الاستعمار والفلاحة.

وبفضل المجهودات الجبّارة التي بذلها محمد بدرة وقع تحرير الحجرتين من هذا القيد، وذلك بانتخاب كاتب وأمين مال من التونسيين، مع إسناد خطة مدير مصالح في الحجرتين إلى تونسي.

وفي سنة 1932، سافر محمد بدرة من جديد إلى فرنسا صحبة المرحوم محمد شنيق الذي كان رئيسا للحجرة التجارية التونسية آنذاك، للتّفاوض مع أرباب صناعة الحرير في عدم صنع المنسوجات الحريرية التي تزاحم وتقضي على صناعة الحرير التقليدية التونسية.

والملاحظ أنّه كان في ذلك الوقت، من مؤسسي معمل النّسيج الكبير، المعروف باسم Sté Tunisienne Filiature et Tissage "STUFIT" بمشاركة محمد شنيق ومحمد العزيز الجلولي. كما أنّه من مؤسسي معمل الحرير الذي كان يديره حمودة الاسكندراني.

وهو بالإضافة إلى كل هذا، كان يكتب المقالات الصحفية في مختلف المجلاّت الأدبية والثقافية والاجتماعية، بأسلوب بديع، وبمقدرة فائقة في بلاغة التحرير، وخاصة بجريدتي «الزهرة» و «الزّمان».

وفي نفس السنة (1932)، كان من المؤسسين لجمعية المؤلفين التونسيين، وتقلّد رئاستها.

وقد نشرت جريدة «الزّمان» في العدد الصادر في 27 جوان 1932، بلاغا طريفا جاء فيه : (جمعية المؤلفين التونسيين) :

«بلغنا خبر اهتززنا له أيما اهتزاز، واستبشرنا به كثيرا، وهو أنّ جمعا من الأدباء المؤلفين التونسيين، قد فكّروا في إحداث مشروع ينضوي تحت لوائه المؤلّفون في الآداب والفنون، والاجتماع، والتاريخ، لا فرق بين من نشر منهم تآليفا أو أكثر، وبين من مازالت تآليفه مخطوطة. وهذا المشروع، سيكون بسيطا في أول أمره، إذ هو يتضمّن أنّ كل مؤلف ممّن ذكر، له الحقّ في الاشتراك، ويدفع لذلك مقدارا معيّنا من الدّراهم سنويّا، والمتحصّل من الأموال المجتمعة بهذه الطّريقة، يقترض منه بعض المؤلفين لنشر مؤلّفاتهم إن تبيّن أنّه في حاجة لما ذكر، ومجموع المشتركين، تتألف منهم الشّركة، وتؤمّن أموالها باسمها بأحد البنوك.

ولا شكّ، أنّ هذا المشروع سيلاقي قبولا حسنا من كل مؤلّف، وتشجيعا كبيرا من كل متموّل يريد استخدام أموال بطريقة خاصّة لحمل الأدباء والمفكّرين على الإنتاج الذي قلّ في هذه السّنوات القاحلة».

وفي هذه السنة أيضا (1932)، لعب محمد بدرة دورا بارزا في إقناع محمود بيرم التونسي الذي نفي من مصر إلى فرنسا، بالسّفر إلى تونس، والاستقرار بها، بعد اتّصال جرى بينهما في باريس.

وقد أشار إلى ذلك المرحوم الهادي العبيدي في إحدى ذكرياته التي نشرها بجريدة «الصباح» في 19 جانفي 1961، عن أوّل لقاء بينه وبين محمود بيرم التونسي، قائلا: (... كان ذلك في أواخر شهر ديسمبر 1932، إذ دخل علينا محمود بيرم، يتقدّمه صديقنا الماجد سعادة الأستاذ محمد بدرة، سفير تونس اليوم في المملكة الليبية المتّحدة، وكان قبل أسابيع في فرنسا، فالتقى هناك بيرم، واستطاع أن يقنعه بالقدوم إلى تونس وطنه الأصلي، حيث يعيش في بلد عربي، يفهمه ويتذوّق أدبه، ويساهم به في النّهوض بالصحافة التونسيّة التي أخذت تتطوّر في تلك السنوات..)

هذا وقد أسندت لمحمود بيرم مهمّة رئاسة تحرير جريدة «الزّمان» باقتراح من محمد بدرة، وذلك لمناصرة جماعة شنيق، ولمقاومة مناوئيهم الذين كانوا ينتقدونهم خاصة على صفحات جريدة «النّديم» لصاحبها المرحوم حسين الجزيري.

ولما باشر محمود بيرم هذه المهمّة، كتب محمد بدرة افتتاحية مطوّلة بجريدة «الزّمان» نوّه فيها بشخصية بيرم، وبمكانته الأدبية والصّحفيّة، وهي بعنوان : (الأستاذ محمود بيرم في تونس) جاء فيها :

(... وتشاء المقادير، أن يعود الأستاذ محمود بيرم إلى بلده الذي ينسب إليه، والذي خرج منه جدّه إلى مصر.

وتونس اليوم، تستردّ من شقيقتها، ابنها الذي أعارتها إيّاه عمرا كاملا، وتشكر لها حضانته وإنماءه على أرضها، وتحت سمائها، ثم ردّته إليها صحفيا بارعا، ومؤلّفا قديرا. وما أحوج صاحبي الجلالة، الصّحافة والمسرح إلى أمثاله...).

وكان قبل ذلك، وبالتحديد في شهر أوت 1930، ساهم مع المرحوم عبد العزيز العروي في تأسيس جريدة باللغة الفرنسية بعنوان (Le Croissant) (الهلال)، وهي جريدة وطنية، كانا يحرّرانها بمفردهما.

وفي سنة 1935، شارك في المؤتمر الاقتصادي الذي التأم بباريس، وتولّى الدّفاع عن الاقتصاد التونسي المهضوم الجانب آنذاك.

وفي نفس السّنة، قام برحلة إلى الأقطار العربية الشّقيقة، صحبة محمد شنيق، وذلك لتمتين العلاقات الاقتصادية بينها وبين تونس.

وقد قاوم المنافسة غير الشّريفة التي كانت تضايق الصادرات التونسية إلى مصر، وخاصة صناعة الشّاشية، والمنتوجات الصوفية.

وفعلا، فقد صادق البرلمان المصري في ذلك الوقت، على قانون صارم لقمع الغشّ والتدليس في البلاد المصرية، الأمر الذي مكّن بعض المصدّرين التونسيين، من استئناف علاقاتهم التّجاريّة مع مصر من جديد.

ولم يقتصر محمد بدرة في نشاطه على الشؤون الاقتصادية والتّجارية والثقافية فحسب، بل تجاوزها إلى مسائل حيويّة أخرى تهمّ الشعب التونسي، منها : قضيّة التعليم الثانوي والعالي، التي اهتمّ بها اهتماما خاصا، وقدّم في شأنها التقارير الضافية، حتى تحصل على منح وإعانات للطلبة من الحجرة التّجاريّة التونسيّة، مكّنت العديد من الشبّان التونسيين من مواصلة تعليمهم سواء بتونس، أو بالخارج.

وكان من أوائل المنتفعين بهذه المنح، المرحومان : صالح بن يوسف، والصادق المقدم.

علاقة محمد بدرة بالمنصف باي

ما أن اعتلى (المنصف باي) العرش، في 19 جوان 1942، حتّى كوّن مجلسا خاصّا برئاسة شقيقه (حسين باي)، لمساعدته على تدبير شؤون البلاد، لعدم ثقته في الوزراء

الذين تركهم سلفه (أحمد باي).

وقد عيّن (المنصف باي) محمد بدرة عضوا في هذا المجلس الذي كان يضمّ نخبة من الوطنيين الأحرار أمثال : محمد شنيق، والدكتور محمود الماطري، ومحمد العزيز الجلولي، وصالح فرحات، والصادق الزّمرلي، ومحمد علي العنّابي رئيس جمعية قدماء الصّادقية آنذاك.

وإثر احتلال تونس من طرف قوّات المحور، قرّر (المنصف باي) أن يمسك بنفسه بزمام الأمور، بالتّعاون مع مستشاريه، لمواجهة الظّروف الحرجة التي كانت تجتازها البلاد في تلك الفترة الحاسمة من تاريخها.

فأمر الوزراء المباشرين لمهامهم منذ عهد (أحمد باي) بالاستقالة من مناصبهم، من أجل المصلحة العامة، وعوّضهم يوم 31 ديسمبر 1942، بوزارة جديدة دون الحصول على موافقة المقيم العام حسبما يقتضيه نظام الحماية.

وقد كانت هذه الوزارة تتألف من :

- محمد شنيق : وزير أكبر
- د. محمود الماطري : وزير الدّاخلية
- صالح فرحات : وير العدل

وانضمّ إلى هذه التشكيلة فيما بعد محمد العزيز الجلولي بصفة وزير للأوقاف، وعهد محمد شنيق بإدارة ديوانه إلى صديقه محمد بدرة، نظرا لما كانت تربط بين الرّجلين منذ عهد قديم من علاقات المودّة والتّقدير المتبادل.

وقد قام محمد بدرة بالمهمّة الملقاة على عاتقه على أحسن وجه، في مثل تلك الظروف العصيبة.

ولنستمع إلى ما كتبه حول هذا الموضوع المرحوم

الصادق الزّمرلي، الذي شغل في عهد (المنصف باي) خطة مدير تشريفات :

«... ليس من أقلّ مزايا حكومة الرئيس محمد شنيق أنّها قاومت، بتوفيق يكاد يكون تامّا، شتّى الضغوط المسلّطة عليها من كلّ جانب، وتمكّنت من وقاية البلاد من عواقب وخيمة لا حصر لها... ولا يستطيع أيّ إنسان عاش تلك الفترات المضطربة والمؤلمة، إن كان من ذوي النّوايا الطيّبة، أن ينسى ما أظهرته مجموعة صغيرة من الرّجال الحازمين والنّزهاء، من صبر وعزم، لتذليل جميع الصعوبات المثارة في كل آن وحين.

كما لا يمكن أن يتغافل أيّ إنسان عن النّصيب الوافر من السياسة المتبصّرة والواقعية المتّبعة عندئذ، ذلك النّصيب الرّاجع أوّلا وبالذّات إلى السيد محمد بدرة رئيس ديوان الوزير الأكبر، الذي تمكّن من تقديم مساعدة ثمينة، بفضل ما كان يتمتع به من خبرة بشؤون البلاد، علاوة على ما كان يتحلّى به من مواهب نادرة، وحنكة فائقة، في مجال الإقناع والجدليّة المتّزنة...».

دور محمد بدرة في الحركة المنصفية :

لقد تأثّر محمد بدرة بإقدام السّلط العسكرية الفرنسية في 14 ماي 1943 على خلع الملك الشّرعي ورمز السيادة التونسية. وكان من أبرز مؤسسي الحركة المنصفية التي كانت تتألف من أتباع جميع المنظّمات الوطنية، والأحزاب السياسية التونسية، ما عدا الحزب الشيوعي.

وقد أمدّ محمد بدرة، الجنرال الصادق الزّمرلي، إثر خلع المنصف باي، بكثير من الوثائق والمعلومات، لتمكينه من تحرير التّقرير المستفيض الذي قدّمه إلى السّلط الفرنسية بالجزائر، للدّفاع عن الملك المخلوع وتوضيح مواقفه الحقيقية تجاه المحور.

ولمّا لاحظ إصرار الحكومة الفرنسية على عدم رفع هذه المظلمة الصّارخة، نظّم حملة شعبية واسعة النطاق، في جميع أنحاء البلاد، ولا سيما في العاصمة، فاضطرت سلطة الحماية في 21 مارس سنة 1944 إلى إبعاده إلى توزر، وأفرجت عنه في 28 أفريل من تلك السنة بمقتضى عفو أصدره المقيم العام الجنرال (MAST).

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، ونقل المنصف باي من الجزائر إلى مدينة (بو) في جنوب فرنسا، سنة 1945، انضمّ محمد بدرة إلى الهيئة الوطنية التي تحمل اسم : (لجنة الدّفاع عن المنصف باي) وهي تضمّ بعض أفراد العائلة الحسينية ووزراء المنصف باي، ورجال الحركة الوطنية وفي مقدمتهم الحبيب بورقيبة، ومحمود الماطري، وصالح فرحات، ومحمد الفاضل ابن عاشور.

وقد أصدر محمد بدرة باسم هذه اللجنة وبالاشتراك مع المناضل العابد بوحافة نشرية باللغة الفرنسية، بعنوان :

(الكتاب الأبيض)

لتسليط الأضواء على الأحداث التي سبقت خلع المنصف باي، وتوضيح مواقفه تجاه المحور، والمطالبة بإرجاعه إلى عرشه. وقد وزّع (الكتاب الأبيض) على المحافل الدّولية في أوروبا والولايات المتّحدة وأحرز نجاحا باهرا بالاشتراك معه، وهو - أي العابد بوحافة - الذي أمضى التوطئة باسم مستعار وهو الدكتور محمد بو الأخراص.

ومن بين أعضاء اللجنة التي قدمت (الكتاب الأبيض) إلى الحكومة الفرنسية المؤقتة : عبد العزيز بن حسين وهو شخص مغمور أصله من المكنين يدعى : عبد العزيز بن الحاج حسين، ويعرف في الأوساط السينمائية باسم : سالم الدّريقي. وقد قام بنشاط سياسي في تونس إثر دخول

الحلفاء، وهو الذي ربط الصّلة بين الزّعيم الحبيب بورقيبة والقنصلية الأمريكية.

وإثر إنشاء الجامعة العربية، التجأ إلى القاهرة خفية، وعمل مدّة من الزمن في الأمانة العامّة لجامعة الدول العربية، ومازال الكثير منّا يتذكر الخطاب البليغ الذي ألقاه في المجلس التأسيسي يوم 25 جويلية 1957 بمناسبة إعلان الجمهوريّة، للإشادة بما قدّمه المنصف باي من خدمات جليلة للقضية الوطنية التي ضحّى في سبيلها بعرشه.

وفي سنة 1948، انتخب محمد بدرة رئيسا للحجرة التّجارية التونسيّة، وتجدّد انتخابه لثلاث دورات متتالية.

وفي سنة 1950، عيّن وزيرا للشؤون الاجتماعية في حكومة التّفاوض الأولى.

وفي سنة 1952 (14 جانفي) قدّم الوفد الوزاري التونسي المؤلف من صالح بن يوسف وزير العدل، ومحمد بدرة وزير الشؤون الاجتماعية، الشّكوى التّونسيّة في شأن الخلاف الحاصل بين تونس وفرنسا، إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة. وقد جاء في البلاغ الذي سلّمه إلى الصحافة عضوا الحكومة التونسية المقيمان في باريس ما يلي :

(... نظرا لما لكلّ دولة سواء كانت عضوا بالأمم المتّحدة أو لم تكن، من الحقّ في الالتجاء إلى أسمى هيئة احتكام أممية، لإيجاد التّسوية السلميّة للخلاف القائم بينها وبين دولة أخرى، فإنّ الحكومة التونسيّة ستعرض بصفة مباشرة، الخلاف التونسي - الفرنسي، أمام مجلس الأمن.

وقد اقتبل صاحبا المعالي صالح بن يوسف ومحمد بدرة، الوزيران التونسيان، من طرف المستر (Cordier) رئيس ديوان الكاتب العام للأمم المتحدة. وقد صرّح معالي محمد بدرة للصّحافة قائلا : (... لم يقبل المستر (Cordier) بسهولة

الرسالة الممضاة من طرف دولة السيد محمد شنيق رئيس الوزراء قائلا :

إنّ الحقّ في عرض هذا الخلاف، يرجع إلى فرنسا.

فكان جوابنا : إنّ الحكومة الفرنسية بصفتها خصما، لا يمكن لها بطبيعة الحال، عرض مثل هذه القضية على مجلس الأمن.

وأخيرا قبل المستر (Cordier) في النّهاية فتسلّم رسالتنا، بعد أن قام بتحقيق أوراق اعتمادنا.

وسئل محمد بدرة، هل أنّ الرّسالة المسلّمة إلى المستر (Cordier) محلاّة بطابع سموّ الباي، أو بتأشيرة صاحب الدولة رئيس الوزارة ؟

فاندفع بحماس شديد، قائلا :

عندما ترفع الحكومة الفرنسية شكوى لدى الأمم المتحدة، ولا تكون المذكّرة حاملة لتأشيرة (م. Vincent Auriol)، فلماذا تريدون أن يمضي صاحب الجلالة على مثل هذه الوثيقة ؟

بعد هذا، وفي يوم الاربعاء 26 مارس 1952، تمّ إلقاء القبض على أعضاء الحكومة التونسية، وعلى رأسهم الوزير الأكبر محمد شنيق، ووقع إبعادهم إلى (قبلّي) بالجنوب التونسي، كما وقع نقل الزعماء : الحبيب بورقيبة، والمنجي سليم، والهادي شاكر، ومن معهم، من معتقل طبرقة إلى رمادة أقصى في الجنوب التونسي. وما أنّ بلغ إلى علم الوفد التونسي بباريس خبر هذه التّدابير التي تمّ اتخاذها بالبلاد التونسية ضدّ أعضاء الحكومة، حتى اختفى صالح بن يوسف، ومحمد بدرة من باريس، (وباتا ما أصبحا) كما يقال !

وقد كتب أحد الصّحفيين بباريس غداة هذا الحدث يقول

بلهجة تهكّمية :

(... لو استيقظ (م.Brune)وزير الدّاخلية الفرنسية يوم الاربعاء الماضي قبل وقت استيقاظه بساعتين، لكان الوزيران التونسيان الذين التحقا بالقاهرة، مبعدين الآن في بعض المقاطعات الفرنسية.

ولكنّه استيقظ صباح ذلك اليوم، على السّاعة السابعة، فضغط كعادته على زرّ الرّاديو للاستماع إلى النشرة الاخبارية الأولى وكان الوزير يتفاءل من يومه خيرا، فانصرف لقضاء مآربه هادىء البال، ولم يتمهّل قليلا لينصت إلى النّشرة الاخبارية الثانية، فلم يكن يتصل بأولى البرقيات من تونس، إلاّ بعد ذلك بحصّة عند وصوله إلى الوزارة.

ولمّا شعر الوزير بأنّه تُنُوسي قليلا، بادر إلى الهاتف، ونادى مباشرة (م.Robert Shuman) في وزارة الخارجية. عند ذلك كان صالح بن يوسف ومحمد بدرة، قد اجتازا باب سفارة المملكة العربية السعودية فلم يبارحا باريس إلاّ من الغد، على متن سيّارة تابعة لسفارة الباكستان. وقد وجّهت أوصاف الوزيرين إلى كافة مراكز الحدود. غير أنّه ينبغي الاعتقاد بأنّ سائق سيارة السفارة الباكستانيّة يعرف جيّدا شمال فرنسا لأنّ السيّارة اجتازت بدون صعوبة الحدود الفرنسية- البلجيكية، من طريق قليل المارّة لا يوجد فيه سوى مركز صغير للجمارك !

نشاط محمد بدرة في الحقل السياسي والدبلوماسي بعد الاستقلال

التحق محمد بدرة بالزّعيم الحبيب بورقيبة في باريس، في شهر ماي 1955 وعاد معه إلى تونس يوم غرّة جوان 1955، بعدما قضى ثلاث سنوات ونيّفا في المهجر، متنقّلا بين القاهرة، وبغداد، ونيويورك، للدّفاع عن القضيّة

التونسيّة لدى المحافل الدولية والعربية، صحبة رفقائه : صالح بن يوسف والباهي الأدغم، وعلي البلهوان.

- وإثر دخول اتّفاقيات الحكم الذّاتي حيّز التطبيق، عيّن في سبتمبر 1955 وزيرا للفلاحة في حكومة الطاهر بن عمّار الثانية.

- وفي 25 مارس 1956، انتخب عضوا في المجلس القومي التأسيسي ضمن قائمة الجبهة الوطنية.

- وفي 3 فيفري 1959، التحق بالسّلك الديبلوماسي، وعيّن سفيرا في ليبيا إلى غاية غرّة أوت 1961، وقد نجح أثناء قيامه بهذه المهمّة في توطيد العلاقات بين البلدين الشقيقين على كافّة المستويات وفي مختلف المجالات.

- وفي 25 جانفي 1962 عيّن سفيرا في كلّ من سوريا والكويت مع الاقامة في دمشق إلى 30 جوان 1963.

- وفي غرّة سبتمبر 1963، عيّن سفيرا لدى الجمهورية العربية المتّحدة بالقاهرة، وتوفّق إلى تطبيع العلاقات التونسية المصرية التي ظلت مقطوعة مدّة طويلة. وقد ساهم بالخصوص، في تنظيم الزّيارة التي أدّاها الرئيس جمال عبد النّاصر إلى تونس يوم 15 ديسمبر 1963 للمشاركة في احتفالات عيد الجلاء ببنزرت. كما نظّم الزّيارة التي أدّاها الرئيس الحبيب بورقيبة إلى القاهرة في سنة 1965، ضمن الجولة التي قام بها في الشرق الأوسط. ومن المعلوم، أنّ هذه الجولة، قد أسفرت عن تأزّم العلاقات التونسية-المصرية من جديد إثر خطاب (أريحا) الشهير، وما أثاره من ردود فعل عنيفة في مصر خاصة. فقد ثارت ثائرة وسائل الإعلام المصرية، وانتظمت مظاهرات صاخبة في القاهرة، للاحتجاج على ذلك الخطاب، ورفض الرئيس عبد النّاصر استقبال السفير التونسي محمد بدرة المكلّف بإبلاغه الرّسالة التي وجّهها إليه الرئيس الحبيب بورقيبة

لتوضيح موقفه من النّزاع العربي - الإسرائيلي، وبلغت الأزمة ذروتها، لمّا هجم المتظاهرون يوم 28 أفريل 1965 على مقرّ إقامة السّفير التونسي على مرأى ومسمع من الشّرطة، وقاموا بحرق المقرّ، منادين بقتل السفير، ومن حسن الحظ، أن محمد بدرة، كان وقتئذ في اجتماع مع عبد الخالق حسّونة، الأمين العام لجامعة الدول العربية، ومن الغد، قفل راجعا إلى تونس.

- وإثر قطع العلاقات الديبلوماسية مع مصر، عيّن محمد بدرة سفيرا في روما وأثينا، من غرّة جويلية 1965، إلى 12 جويلية 1969.

- وبعد انتهاء مهمّته، رجع إلى تونس، حيث انتخب رئيسا للمجلس الاقتصادي والاجتماعي من سنة 1970 إلى سنة 1973.

- ثمّ عيّن رئيسا لمجلس إدارة الاتحاد البنكي للتجارة والصناعة.

وكان قبيل ذلك في سنة 1971، انتخب رئيسا للمعهد الرشيدي للموسيقى، حيث كان من عشّاق الموسيقى الشّرقية كهاو من الهواة، وتعلّم العزف على آلة العود الذي كان بارعا فيه، وكانت هوايته المفضّلة الموسيقى العربية العامة، والموشحات بصفة خاصة. وكان يفضّل من المطربين سيّد درويش واتّصل عند هجرته إلى الشرق أثناء الثورة الوطنية، بالشعراء والفنّانين، في الشام ومصر، وخاصة محمد عبد الوهاب، وكوكب الشرق أم كلثوم.

وأخيرا، وليس آخرا، فإنّ هذا الرجل الذي عاش في صمت، وعمل في صمت، ومات في صمت، يمتاز برقّة الطبع، ودماثة الأخلاق، وخفّة الرّوح، والنّكتة البارعة، وهذا مجال واسع، لعلّ فرصة أخرى تمكّننا من التبسّط فيه إن شاء اللّه.

حضرات السادة والسيّدات !

في فجر يوم السبت 11 أوت 1973 انتقل محمد بدرة إلى جوار ربّه، إثر نزيف في شرايين المخّ، عن سنّ تناهز 73 عاما. وقد دفن بمقبرة الزلاّج بتونس، صبيحة يوم الاثنين 13 أوت 1973.

رحم الله محمد بدرة الذي عاش عزيز النّفس، حرّا مترفعا عن الدّنايا، والذي يتمثّل في شخصه قول الشاعر :

على مهجتي تجنى الحوادث والدّهر
فأمّا اصطباري فهو ممتنعٌ وعْرُ
كأنّي ألاقي كلّ يوم يَنُوبُنِي
بِذَنْبٍ وما ذنبي سوى أنني حُرُّ
فإن لم يكن عند الزّمان سوى الذي
أضيق به ذرْعًا، فعندي له الصَّبْرُ
وقالوا : تَوَصَّلْ بالخُضوع إلى الغِنَى
وما علِمُوا أنّ الخضوعَ هو الفقرُ
وبيني وبين المال بَابَانِ حَرَّمَا
عليَّ الغِنَى، نفسي الأبيّةُ والدّهرُ
إذا قيل : هذا اليُسْرُ، عاينتُ دونه
مواقِفَ خيرٌ من وقوفي بها العُمْرُ
إذا قُدِّمُوا بالخير قُدِّمْتُ دونَهم
بنفسٍ فقيرٍ، كلُّ أخلاقه وَفْرُ

الجيلاني بن الحاج يحى

لقاء الصيانة جانفي 1994

البشير التّليلي

حياته وآثاره (1935-1986)

ولد المرحوم البشير التّليلي يوم 22 سبتمبر 1935 في (ميدون) بجزيرة جربة، وبها تلقى دراسته الابتدائية. ثم انتقل إلى مدينة تونس حيث واصل دراسته الثانوية بالمدرسة الصادقية وبمعهد كارنو إلى أن أحرز شهادة الباكلوريا (شعبة فلسفة) في سنة 1959.

وإثر ذلك تحول إلى فرنسا لمزاولة دراسته الجامعية، فالتحق بجامعة «سترازبورغ» وتحصل منها في سنة 1964 على الإجازة في علم الاجتماع والإجازة في الفلسفة. ورغم تضلّعه في هاتين المادتين، فقد فضّل اقتحام ميدان البحث العلمي والتخصص في التاريخ الإسلامي المعاصر بوجه عام وتاريخ المغرب العربي بوجه خاص. فالتحق بجامعة نيس (Nice) حيث عكف على إعداد شهادة «دكتوراه» الحلقة الثالثة بإشراف الأستاذ «أندري نوشي» الاختصاصي في التاريخ المعاصر، وكان موضوع رسالته التي ناقشها بنجاح «العلاقات الثقافية والمذهبية بين الشرق والغرب في البلاد

التونسية من 1830 إلى 1880».

ولكنه لم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل واصل أبحاثه في هذا الميدان في نفس الجامعة إلى أن أحرز في سنة 1969 شهادة «دكتوراه» الدولة بامتياز وكان موضوع أطروحته : «موقف المفكرين التونسيّين في النصف الأول من القرن التاسع عشر من القضايا الثقافية والمذهبية». وبذلك أصبح البشير التّليلي من المختصّين التونسيّين القلائل في تاريخ الحياة الفكرية في العالم العربي الإسلامي بوجه عام وفي المغرب العربي بوجه خاص.

وما إن أتمّ دراسته الجامعية بفرنسا حتى عاد إلى أرض الوطن في سنة 1970، فالتحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفة أستاذ مساعد، وما لبث أن ارتقى إلى رتبة أستاذ محاضر ثم أستاذ كرسي. وقد استرعى من أوّل وهلة انتباه زملائه بما كان يتحلّى به من جدّ في العمل وتفان في الاضطلاع بالمهمة التربوية الملقاة على عاتقه، وإقبال على البحث والتنقيب بلا كلل ولا ملل. واختار للدرس الذي كلّف بإلقائه على طلبة السنة الرابعة من قسم التاريخ موضوعا جديدا لم يسبقه إليه أحد، وهو يتعلق بدراسة «الأسس الثقافية والايديولوجية لحركة النهضة في العالم الاسلامي المتوسّطي والبلاد التونسية قبل الاحتلال». وقد أبهر طلبته بثقافته الواسعة وتعمّقه في تحليل القضايا التاريخية وأسلوبه الحديث في تناول المواضيع المطروحة للدرس والنقاش.

ونظرا إلى ما تميّز به البشير التّليلي منذ التحاقه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية من كفاءة وإخلاص وحبّ العمل، فقد انتخبه زملاؤه مرّات متتالية رئيسا لقسم التاريخ، فقام بتلك المهمّة على أحسن ما يرام مدّة سنوات طويلة، وبذل قصارى جهده لتونسة إطار التدريس وإصلاح برامج التعليم حتى تكون مواكبة لتطوّر الدراسات التاريخية في العالم، مع إعطاء التاريخ التونسي المعاصر

المكانة اللّائقة به. ولكنه لم يقتصر على التدريس في كلية الاداب والعلوم الإنسانية ودار المعلمين العليا بتونس ورئاسة قسم التاريخ بالكليّة، بل إنه سخّر جهوده لتطوير البحوث التاريخيّة التونسية ونشرها على أوسع نطاق. فاضطلع مدّة تناهز العشر سنوات بمهمّة رئاسة تحرير مجلّة الكراسات التونسية (Les cahiers de Tunisie) التي تصدرها كليّة الاداب والعلوم الإنسانية بالفرنسية إلى جانب مجلّة «حوليات الجامعة التونسية» الناطقة باللغة العربية.

وقد كانت للفقيد مواقف رائدة تذكر فتشكر تجاه البحوث والدراسات التاريخية في تونس. فكان يرى أن التاريخ التونسي الحديث لا يمكن دراسته بمعزل عن المؤثرات الخارجية. ذلك أن البلاد التونسية بحكم موقعها الجغرافي قد تأثرت على حدّ سواء بالشرق والغرب. لذلك ينبغي إعادة التفكير في التاريخ التونسي على أساس رفض القوالب الجاهزة والأفكار المسبّقة والاهتمام بمختلف التيّارات الثقافية والمذهبيّة الداخليّة والخارجيّة وانعكاساتها على تطوّر البلاد.

ولكنّه لم يكن موافقا على الفكرة التي كانت رائجة منذ مطلع الستينات والداعية إلى إعادة كتابة تاريخ البلدان الإسلامية على أسس جديدة، بعدما تخلّصت من نير الاستعمار. إذ كان يرى أنه لا سبيل إلى كتابة التاريخ التونسي انطلاقا من الصفر وإهمال جميع ما كتبه المؤرّخون السابقون، بل ينبغي إعادة التفكير في تاريخ بلادنا بالتخلص من الأفكار المسبّقة والنظريات المنحازة ومناقشة كلّ ما يبدو نهائيّا وباتّا، مع درس البحوث التاريخيّة القديمة بروح نقديّة وعدم الاستهانة بها. وفي هذا الاطار كان يعتبر أن الوثائق الرسمية ضرورية لدراسة التاريخ المعاصر ولكنها غير كافية، فلو اقتصرنا عليها دون سواها لأصبح تاريخنا مرتكزا على «تقارير أعوان الشرطة ورجال السلطة الاستعمارية». فينبغي حينئذ التعامل مع الوثائق

الرسميّة الاستعمارية بكلّ حذر ومقابلتها ببعض الوثائق التاريخية الأخرى كالمقالات الصحفية والشهادات الشفويّة ووثائق الأحزاب السياسيّة والمنظمات المهنية، سواء منها الوطنية أو الأجنبية. وفي هذا السياق كان يعيب على بعض الباحثين الاقتصار على المصادر الرسميّة لدراسة التاريخ التونسي المعاصر، كما لو كانت تلك المصادر «تنزيلا من عزيز حكيم»، على حدّ قوله.

وكان يرى من ناحية أخرى أن تاريخ الحركة الوطنيّة يمثّل جزءا لا يتجزّأ من تاريخ تونس المعاصر. فلا ينبغي أبدا فصله عن التاريخ العامّ ودراسته بمعزل عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الداخلية والخارجية وعن المحيط الجغرافي والدولي.

وقد وجد المترجم له في أوّل الأمر صعوبات جمّة لإقناع زملائه وطلبته بهذه الأفكار المبتكرة، ولكنه تمكّن في آخر المطاف بفضل عزيمته الراسخة وعمله الدؤوب من نشرها وغرسها في الأذهان من خلال دروسه ومحاضراته وبحوثه القيّمة وإسهاماته في كثير من الندوات والملتقيات العلمية المنعقدة سواء بتونس أو بالخارج.

وكما لم يكن ضنينا ببذل جهوده للإسهام في تطوير الدراسات والبحوث التاريخيّة وتطعيمها بالأفكار والنظريات الحديثة. لم يكن يبخل بثقافته الواسعة ومعارفه الجمّة. فكان حريصا كلّ الحرص على تدريب طلبته على البحث والتحلّي بالموضوعيّة وروح النقد، وعلى الإشراف بنفسه على البحوث التي كانوا يقومون بها لنيل شهادة الكفاءة للبحث أو شهادة البحوث المعمّقة (دكتوراه الحلقة الثالثة). فقد بلغ عدد الأطروحات التي أشرف على إنجازها في مدّة وجيزة ما لا يقل عن 25 أطروحة، وتمكّن بفضل ذلك من الاسهام في بعث المدرسة التاريخيّة التونسيّة الحديثة، وتكوين نخبة من الباحثين الشبّان الذين أثروا ببحوثهم

المكتبة التاريخيّة.

ومن الجدير بالملاحظة من ناحية أخرى أن الفقيد العزيز رحمه اللّه قد امتاز بانتاجه الغزير حيث نشر في ظرف عشر سنوات (1974-1984) ستة كتب تاريخيّة وهي :

- العلاقات الثقافية والمذهبيّة بين الشرق والغرب في تونس 1830-1880.
- دراسات في التاريخ الاجتماعي التونسي (1863-1892).
- الأزمات والتحوّلات في العالم الاسلامي المتوسطي المعاصر (1907-1918).
- الاشتراكيّون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي (1907-1914).
- الحركات الوطنيّة والاشتراكيّة والنقابيّة في المغرب العربي (1919-1934).
- الحركة المناهضة للفاشية بتونس سنة 1939.

وقد صدرت كلّ هذه المؤلفات في تونس باللغة الفرنسية، وكان الفقيد لما خطفته يد المنون في سنة 1986 بصدد تأليف كتابين آخرين :

الأول حول الحركات الاجتماعية والسياسيّة في تونس من 1934 إلى 1954، والثاني حول فكر الأمير شكيب أرسلان من خلال مجلّته «الأمّة العربية» الناطقة بالفرنسية والصادرة في سويسرا. كما كان يعتزم الشروع في نقل كتبه إلى اللغة العربية ولكنّ المنيّة قد عاجلته قبل تحقيق رغبته.

وبالاضافة إلى هذه الكتب، نشر البشير التّليلي في نفس الفترة عدّة بحوث ودراسات تاريخيّة في عدد من المجلات العلمية المختصة الصادرة بتونس أو بالخارج. وقد قام أحد قدماء طلبته، وهو الأستاذ محمد العربي السنوسي بإحصاء تلك البحوث والدراسات التي بلغ عددها 35 بحثا

ودراسة، منها 17 نشرت في مجلة «الكراسات التونسية» التي تولّى رئاسة تحريرها كما أسلفنا، مدّة طويلة، والبقيّة نشرت في مجلات أجنبيّة نخصّ بالذكر منها مجلة «افريكا» الصادرة في روما، ومجلّة الغرب الاسلامي والبحر الأبيض المتوسط الصادرة بفرنسا.

ومن ناحية أخرى قام الفقيد بدور بارز في لجنة تأريخ الحركة الوطنية التي أسستها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي سنة 1978، وساهم إلى آخر رمق من حياته في جميع الندوات العلمية الدولية التي تنظمها اللجنة كل سنتين منذ مطلع الثمانينات.

ولا يفوتنا في الختام أن نشير إلى النشاط الحثيث الذي كان يقوم به في الحقل النقابي، إذ هو من مؤسسي نقابة الأساتذة المحاضرين التابعة للاتحاد العام التونسي للشغل، وقد ناضل في صفوفها نضالا مشهودا للدفاع عن حقوق زملائه والرفع من شأنهم ماديًا ومعنويًا، وتكلّلت مساعيه بالنجاح قبل أن يفارق الحياة الدنيا.

والخلاصة أنّ شخصيّة صديقنا البشير التّليلي رحمه اللّه وجعل الجنّة مأواه، كانت شخصيّة فذّة تجمع بين الصلابة في المواقف المبدئية ودماثة الأخلاق والتفاني في خدمة المثل العليا. وهذا ما جعل فقدانه رزءا جسيما وخسارة فادحة، لا بالنسبة إلى أصدقائه وزملائه وطلبته فحسب، بل بالنسبة إلى البحث العلمي والدراسات التاريخية بوجه عام. ويا حبّذا لو تسعى الجامعة التونسية إلى جمع آثاره التي مازالت مخطوطة ونشرها، ونقل آثاره المطبوعة إلى اللغة العربية، تعميما للفائدة واعترافا بالجميل لهذا الأستاذ الجليل الذي يعدّ علما بارزا من أعلام الجيل الحاضر.

حمادي السّاحلي
(جانفـــي 1994)

مشاركة الأستاذ صلاح الدين التلاتلي في الصحافة الوطنيّة قبل الاستقلال (1)

أسرة التلاتي - أو التلاتلي بإضافة اللام على الطريقة التركية في النسبة - أسرة عريقة في جربة، منازلها بحومة تلات قرب قلاّلة في الجهة الإباضيّة الوهبيّة مذهبا، البربريّة لغة إلى عهد غير بعيد.

أوّل من تذكره المصادر التاريخية من أعلامها هو فيما نعلم الشيخ أبو سليمان داود بن ابراهيم التلاتليّ، المدفون بجهة حومة السوق في غابة بركوك حذو الجامع الذي بني بجانب ضريحه وسمّي باسمه «سيدي داود» دون أن يذكر اللقب والنسبة. ذلك أن هذا الجد الأعلى للأسرة كان قد قاوم - بوصفه شيخا لمجلس العزّابة - احتلال درغوث رايس للجزيرة واضطهاده لأهاليها بجنوده الطرابلسيّين والأتراك، فقبضه درغوث وسجنه ثمّ قتله وربّما أمر أن يمحى اسمه كما يفعل الجبابرة بخصومهم المغلوبين، وقد كان استشهاد الشيخ داود سنة 967هـ / 1560م (2).

وذكر حسن حسني عبد الوهّاب علما آخر من هذه الأسرة، وهو بدر الدين عمر بن رمضان التلاتليّ الذي هاجر إلى مصر ودرس بالأزهر ومات بمصر سنة 1187هـ/1773م (3).

(1) نص المحاضرة التي ألقيت بملتقى (سليمان الجادوي) بآجيم في 30 أفريل 1995.

(2) انظر : محمد بوراس : مؤنس الأحبة ص 94 وتعليق محمد المرزوقي في الهامش 3. ومحمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ج 1، ص 283، وكذلك الحديث الذي أدلى به صلاح الدين التلاتلي إلى جريدة «الجزيرة» عدد 27 أوت 1984.

(3) كتاب العمر ص 976 رقم 286، يقول صلاح الدين التلاتلي إنّ الشيخ داود درس هو أيضا بالأزهر

ثمّ تنقطع أخبار التلاتليّين في الكتب، فنضطرّ إلى الانتقال إلى العصر الحديث وإلى جهة الوطن القبليّ فنجد جدّ صاحبنا فلاّحا، بل أمين فلاحة، بنابل، وقد عمّر هذا الرجل وتوفيّ سنة 1930 عن مائة وثمان سنين. ويبدو أنّ والد هذا الرجل ولد أيضا بنابل، دون أن نعرف بالضبط تاريخ نزوح هذا الفرع التلاتي إلى الوطن القبلي. وقد بقيت للأسرة جذور بمدينة نابل إذ نجد ابنين لهذا الشيخ الكبير نائبين بالمجلس الكبير، واحدا عن جهة نابل وآخر عن المرسى، تزامنت نيابتهما بعض الوقت. هذان الابنان هما الحكيم محمد التلاتليّ (1890-1943) والمربّي الصادق التلاتليّ (1871-1950).

الحكيم محمد التلاتلي تخرّج طبيبا من تولوز (Toulouse) بفرنسا فاشتغل طبيبا للصحة العمومية بتونس ثم بنابل، وسخّر قلمه السيّال باللغتين لخدمة القضايا الاجتماعية والسياسيّة كضعف الجهاز الصحّي في الإيالة وقلّة المستشفيات ونزرة الأطباء والقوابل، ممّا يذهب سنويّا بآلاف المرضى والمواليد والحوامل والأطفال في سنواتهم الأولى، فطالب بإنشاء محاضن عموميّة لوقاية الأم والرضيع ولقي معارضة من الطبيب الفرنسي (Dr Brun) طبيب الاستعمار آنذاك، فاضطرّ إلى تأسيس مصحّة بماله الخاصّ في حيّ ترنجة من العاصمة. يقول الأستاذ صلاح الدين التلاتلي في الترجمة التي خصّصها لعمّه هذا (4) إنّه ركبه مرض القلب بسبب هذه العراقيل التي اعترضته في مسعاه الإصلاحي فانعزل بمسقط رأسه نابل وتوفّي خمسة أيّام بعد دخول الحلفاء للمدينة، ويضيف أنّ الحكيم محمد التلاتلي عمل على حماية الجالية اليهوديّة بنابل من اضطهاد الجيش الألماني.

ومن نشاط هذا الطبيب في السياسة احتجاجه على

(4) انظر ملفّ الطبيب محمد التلاتلي بمركز التوثيق القومي.

إبعاد الزعماء في سبتمبر 1943 اعتمادا على «الأوامر الجائرة» لسنة 1926، ومشاركته في تأسيس جمعية أحبّاء الطلبة (التونسيّين بالخارج) وتنديده في فصوله المدوّية بجريدتي النهضة و Tunis-Socialiste بسياسة الحكومة الاستعمارية في الفلاحة، وله في الموضوع مقال عنيف في تونس الاشتراكية بتاريخ 3 مارس 1929 بعنوان «غابة الزياتين بطبربة وجمعيّة الأوقاف». على أنّ هذا النشاط الوطنيّ لم يحمه من الدسائس والفصول المغرضة، فهذه جريدة النهضة نفسها تدرج مقالا بدون إمضاء يقول صاحبه تحت عنوان «الحكيم التلاتلي يقاوم العربيّة» : إنّ وجود الدكتور التلاتلي بالمجلس الكبير أشدّ خطرا على الأمّة التونسيّة من حزب الاستعمار» (النهضة 5 ماي 1929) ولعلّ منتقده لم يفهم قصده إذ تحدّث النائب عن الشروط التي تطلب في الناخب، وهي معرفة القراءة والكتابة واكتساب مستوى صالح من الثقافة حتى لا يكون لعبة في يد السلطة الاستعمارية فتحمله على التصويت لمن ترضاه (5).

الابن الثاني – وإن كان الأكبر سنا – الذي برز على الصعيد الوطنيّ هو الصادق التلاتلي والد صاحبنا. ولد قبل شقيقه الطبيب بنحو عشرين سنة وتوفّي بعده بسبع سنوات (1871–1950). بدأ دراسة الحقوق بمدينة إيكس (Aix - en - Provence) في جنوب فرنسا أيضا، وانقطع مبكّرا سنة 1892 فانخرط في سلك التعليم معلّما بمدارس الترشيح وألقى دروسا بالخلدونية وأصبح أوّل متفقّد للتعليم الابتدائي العربي، وألّف كتابه المدرسيّ المعروف «الطريقة العصرية» التي عمّرت طويلا مثله حتى صار طول بقائها محلّ تندّر عند المعلّمين. وعمل بعد بلوغ سنّ التقاعد سنة 1930 على نشر شبكة الكتاتيب والمدارس القرآنية.

---

(5) محمد علي بلحولة : الطبيب التونسيّ، تونس 1995، ص 215 – وملف محمد التلاتلي بمركز التوثيق الوطنيّ.

وتحوّل إلى عضويّة المجلس الكبير فكان نائبا من سنة 1931 إلى سنة 1945، واتّسمت مداخلاته بالجرأة في المطالبة بالإصلاح السياسيّ والاجتماعي، وبالشجاعة في التنديد بظلم سلطة الحماية. وكان يوكل إليه افتتاح الدورة النيابيّة بوصفه أكبر النوّاب سنّا، فيكون الخطاب فرصة لترجمة الآمال الوطنيّة، فنجده مثلا في خطبة نوفمبر 1943 (النهضة 23 نوفمبر) يحيّي روح النوّاب الذين سبقوه وجاهدوا «في خدمة قضية البلاد التونسيّة» وقضوا نحبهم، «ومنهم محمد المقدّم، ومحمد الرصّاع والبشير البكري، وشقيقي المحبوب الحكيم محمد التلاتليّ».

وكان أوّل من طالب بتعطيل أشغال المجلس أيّام الجمع حتى يؤدّي النوّاب الفريضة، ولمّا لم تستجب الكتابة العامّة للحكومة لهذا الطلب المشروع، قرّر التغيّب بمفرده كلّ يوم جمعة وأعلن موقفه قائلا : «عشت 75 سنة حرّا وأريد أن أبقى حرّا إلى حين موتي!». ويبدو أنّه كان صارما في معاملاته وقورا مهابا، ممّا حمل محمود بيرم التونسيّ على رشقه بسهام فكاهته الساخرة في مجلّة الشباب (29 أكتوبر 1936) فدبّج له لوحة يختلط فيها الصحيح بالمفتعل كتوديعه للطاغية (بيروتون) بالدموع - كناية عن المطر المنهمر يومذاك - أو توزيع بيانه الانتخابي وقد رصّعه بمدائح الشعراء فيه.

ولا نعرف شيئا عن الابنين الآخرين، عبد القادر وسليمان، سوى أنّ عبد القادر كان قاضيا بمحكمة الدريبة.

* * *

ونصل إلى صلاح الدين التلاتلي موضوع حديثنا : فقد ولد بتونس العاصمة يوم 2 جانفي 1916 في دار الصادق التلاتلي بنهج جامع الهواء التي سكنها الزعيم الحبيب بورقيبة فيما بعد فعرف الحيّ كلّه بـ "معقل الزّعيم". وتلقّى دراسته الأولى بمعهد كارنو من 1925 إلى 1935. هنا لا

بأس من أن نتساءل عن عزوف جدّه الفلاّح بنابل وأبيه متفقد العربيّة عن التعليم الصادقيّ فضلا عن التعليم الزيتوني، هذه الظاهرة النفسيّة التي رسخت واستقرّت واستمرّت إلى ما بعد الاستقلال عند بعض الأسر العريقة والعائلات الموسرة وحتّى عند بعض إطارات الدولة ومسؤولي التربية والتعليم، والأمر هنا أدهى وأمرّ : هل كان هؤلاء يسعون إلى ضمان المناصب المعتبرة لأبنائهم ؟ أم كانوا ينضوون تحت لواء الثقافة الغالبة وينخرطون في مفهوم ضيّق للحداثة آنذاك ؟

والنتيجة أن صاحبنا صلاح الدين التلاتلي مثلا، على غزارة علمه وثبوت وطنيّته وجرأة مواقفه القوميّة، كان لا يكتب العربيّة فيضطرّ إلى ترجمة كتبه وفصوله بواسطة بعض زملائه كأستاذنا محمد سويسي أبقاه اللّه.

التحق الشاب صلاح الدين بمدينة (Montpellier) بجنوب فرنسا أيضا فتحصّل على الإجازة في التاريخ والجغرافيا في جوان 1937 وكان تردّد كما قال بين الفلسفة والعلوم الطبيعية والتاريخ، وفي العام الموالي ناقش رسالته (الكفاءة في البحث) عن «جربة والجربيّين» ثمّ حاول مناظرة التبريز بباريس سنة 1939 فاندلعت الحرب العالميّة الثانية فانقطع عن الدراسة. وعاد إلى الوطن فعيّن أستاذا بالصادقيّة - فكان بين تلاميذه كما يقول مصطفى الفيلالي والشاذلي القليبي والطيّب المهيري وبورقيبة الابن، ومن بين زملائه محمود المسعدي وعبد الوهاب بكير ومحمد السويسي وعبد السلام الكناني وخميّس الحجري وجلّولي فارس، أي كما يقول في حديثه : "النخبة الفكريّة والسياسيّة الحاليّة" - ثمّ بمعهد كارنو، غادره طالبا سنة 1935 وعاد إليه أستاذا سنة 1941، وبقي به إلى بلوغه سنّ التقاعد، مع مرور بمعهد الآثار مديرا له - أو كاهية مدير - في نوفمبر 1967. ولم يثنه التدريس ولا المهام الإداريّة عن

مواصلة البحث، فقد ناقش في جوان 1977 أطروحة دكتورا الدولة بكتابه عن «قرطاج البونيقيّة».

ولم يقتصر على التدريس والبحث التاريخي في الآثار، والجغرافيّ في الاقتصاد، بل خاض الحقل الثقافي بما كان يلقيه من محاضرات على منبر قدماء الصادقيّة، والحقل الاجتماعي والسياسي بالعمل الصحفي في جرائد شارك في بعثها أو أسسها بنفسه، منها جريدة محمد بن عبا «تونس الفتاة» Jeune Tunisie أدار تحريرها من 1947 إلى 1949، وغادرها كما يقول لأنها تنكّرت للميثاق الذي عقده مع صاحبها، وهو أن تبقى الجريدة مستقلّة عن أي حزب، حرّة لا تنتمي إلى أيّة كتلة، وهذا يعني أنّه لم يقبل ما سمّاه هيمنة الحزب الدستوري الجديد - وكثيرا ما يسمّيه «الجديد Néo» فقط - على الحياة الوطنيّة ولا استقطابه للكفاح التحريري، فلذلك نستشفّ من خلال الأعداد القليلة للجريدة - وقد عطّلت طيلة 10 أشهر - ميلا واضحا إلى المنصف باي حتّى سمّيت «جريدة منصفيه» كأنها تدافع عن حزب «منصفي» أو تيّار منصفيّ ضمن الحركة الوطنيّة، وتتحسّر على الباي الراحل كأن مدّته القصيرة هي عنوان الحريّة والاستقلال والتقدّم وكأنّ عودته هي محطّ آمال الشعب التونسي.

من ذلك أيضا ارتياحه الشديد لمؤتمر ليلة القدر (23 أوت 1946) وقد حضره إمّا بوصفه صحافيّا وإمّا بوصفه نقابيا إذ كان كاتبا عامّا لنقابة التعليم الثانوي منذ تأسيسها بسعي من أسرة المباحث كما يقول في 9 فيفري 1945. وهو المؤتمر الذي طالبت فيه جميع الشرائح الوطنيّة لأوّل مرّة بالاستقلال، واستمرار مطالبته بالحفاظ على تلك الوحدة التي جسّمها الاجتماع في تلك الليلة المباركة - والخطاب هنا موجّه إلى الحزب الدستوري الجديد قائد الحركة وضمانها وقطبها بحكم الواقع.

من ذلك أيضا انخراطه في اللجنة التنفيذية (الحزب

الدستوري القديم) سنة 1951 إلى ما بعد الاستقلال، ومعارضته للاتفاقيات حول الاستقلال الداخلي، فله في هذا الاستنكار العنيف فصول وتوقّعات وتنبؤات كذّبها التطوّر السريع للأحداث إذ وصلت البلاد في أقلّ من عام إلى الاستقلال التامّ وذلك بفضل التفاف الشعب التونسي حول الحزب الدستوري الجديد، وحنكة قائده الزعيم الحبيب بورقيبة.

غادر إذن جريدة ابن عبا وأسّس جريدته «الأمّة التونسية» في جانفي 1949 (La Nation Tunisienne) واختار لها شعار : وحدة، عمل، استقلال، أي وحدة جميع التونسيّين دون إقصاء لأحد، وعمل فوريّ لبناء صرح الأمّة، واستقلال حقيقيّ، أي تحرّر كامل من قيود الحماية. وبرّر في الافتتاحيّة استعماله لفظة «أمّة» عوض لفظة «شعب» المتداولة، واستبدال الشعب التونسيّ بالأمّة التونسيّة أمر لا يخلو من خلفيات مذهبيّة وانتماء إيديولوجي، وقد خضنا في الثمانينات في هذا الموضوع اللغوي السياسي حين أصبح «مجلس الأمّة» يدعى «مجلس النوّاب». برّره بتعريف للأمّة منقول عن الزعيم الإيطالي مازيني (G. Mazzini) صانع الوحدة الإيطالية في سبعينات القرن الماضي إذ قال : «الأمّة هي مجموعة من الناس تجمعهم اللغة والخصائص الجغرافية والتاريخ المشترك ويسعون قبل كلّ شيء إلى تحقيق غاية واحدة» فحوّله صاحبنا وقال : «الأمّة التونسيّة ليست ناتجة عن اتحاد في اللغة والتاريخ الماضي والخصوصيّات الجغرافيّة بقدر ما هي ناتجة عن إرادة أبنائها جميعا وعزمهم القويّ على استرجاع استقلال بلادهم». فصارت اللغة والعقيدة والتاريخ والرقعة الأرضية، أي ما نسمّيه الهوية أو الذاتيّة، تقع عنده في المرتبة الثانية.

وفي عدد لاحق (6 فيفري 1949) يضمّن عنوان مقاله «تونس ينبغي أن تتكوّن بنفسها» الشعار نفسه الذي أعلنته

حركة مازّيني «البعث (Risorgimento)» القائل : إن ايطاليا ستتكوّن بنفسها (L'Italia si fara da se) ولعلّه استوحى أيضا اسم تونس الفتاة لجريدة ابن عبا من حركة «ايطاليا الفتاة» (Jeune Italie) التي قادها مازيني، مثلما استوحى المحامي شمس الدين العجيمي اسم حزبه «الاتحاد والترقّي» من حركة الشبّان الأتراك (Jeunes Turcs) – ولا ننسى أنّ صاحبنا هو أستاذ تاريخ وقد انخرط مدّة في حزب العجيمي – ويدعو في نفس العدد إلى تأسيس «جبهة وطنيّة فوريّة تجمع الطاقات القوميّة المشتّتة المبعثرة في صخرة صلبة صمّاء لا تتفتّت ولا تنحلّ».

دامت هذه الصحيفة ستّة أشهر، إلى 19 جوان 1949 وعوّضتها في فيفري 1951 جريدة «استقلال Indépendance» التي أسّسها مع المرحوم الحكيم أحمد بن ميلاد تحت شعار «أسبوعية سياسيّة للوحدة القوميّة»، فلم تخف الصحيفة منذ عددها الأوّل معارضتها «لسياسة المراحل ولسياسة الإصلاحات وحتّى للاستقلال الداخليّ ما لم تلتزم فرنسا بالاعتراف باستقلال تونس في أجل معيّن»، وتعزّز موقف الرفض بفصل لصالح فرحات الكاتب العامّ للّجنة التنفيذيّة يبرّر فيه عدم مشاركة حزبه في الحكومة التفاوضيّة التي ضمّت صالح بن يوسف ممثلا للحزب الجديد. ولا تكتفي بالكلام، على وضوحه وصراحته، بل تجسّمه بصورة كاريكاتوريّة عنوانها : الحلقة المفرغة أو : منها أتينا وإليها نعود، وتمثّل تونسيّا مطربشا يحمل محفظة – ويعني المثقّف – تقوده «ماريان Marianne رمز الجمهوريّة الفرنسيّة بيده، في حركة دائريّة انطلقت من صورة للقصر السعيد – كناية عن معاهدة الحماية – وتعود إلى القصر السعيد مرورا بلافتة تعلن «الاستقلال الداخليّ» بعد أن يتخطّى المواطن ومرافقته ثلاثة قبور معمّمة بالعمامة العربية / التركية كتب عليها أسماء : المتلوّي والنفيضة وصفاقس – إشارة إلى

الاستعماري للإضرابات العمّاليّة - وينكّبان عن الطريق الواسعة التي تشير إلى الاستقلال.

ولم تكتف الصحيفة بالتنديد بسياسة المراحل، بل دعت إلى اتّخاذ إجراءات سريعة ناجعة لإنقاذ الشعب من المجاعة - وقد عرفت البلاد مجاعة رهيبة في سنتي 1947 و1948 - وناقشت بالأرقام مزاعم الحكومة التي تعزو نقص الإنتاج الفلاحي إلى الجفاف فيقول صاحبنا في مقال 26 أفريل 1951 : ليس سبب المجاعة المشيئة الالاهيّة فقط التي حبست المطر، بل السبب الرئيسي هو ظلم الاستعمار الذي انتزع الأراضي من مالكيها وأسندها إلى المعمّرين حتى صار المعمّرون - وعددهم نحو الألفين - ينتجون ما يقرب من مليوني قنطار من الحبوب، في حين أنّ السباسب والصحاري التي أبقاها الاستعمار لنحو 360.000 فلاّح لا تنتج إلاّ 181.000 قنطار.

توقّفت جريدة «استقلال» في جويلية 1951 بعد خمسة أشهر من الحضور وتلتها فترة من السكوت لم نجد فيها نشاطا صحافيّا للأستاذ التلاتلي، حتّى أكتوبر 1955 أي بعيد الاستقلال الداخليّ، فيستأنف نشاطه في صحيفة «الاستقلال» العربية التي أنشأها الحزب الدستوري القديم تعويضا للسانه «الإرادة» فيكتب فصولا ضدّ الاتّفاقيات التونسيّة - الفرنسيّة في لهجة صارمة حادّة فيقول في عدد 22 أكتوبر 1955 : «إن هذه الاتّفاقيات التي تربط مصير أجيال عديدة (من التونسيّين) قد عرضت ونوقشت وأبرمت بمعزل عن الممثّلين الشرعيّين المنتخبين بصفة قانونيّة من الشعب التونسي» ويدعو إلى انتخاب «مجلس تأسيسي» انتخابا حرّا مطلقا، فيكون هو الطرف الوحيد الذي يتكلّم باسم الشعب والأمّة. وفي فصل بتاريخ 25 نوفمبر 1955 يحكم حكما باتّا على الاتفاقيات فيقول في العنوان : «الاتّفاقيات لا تفضي إلى الاستقلال» وهو الموقف الذي

اتّحدت فيه المعارضة للحزب الجديد ولرئيسه الحبيب بورقيبة، بين لجنة تنفيذية وأمانة عامّة.

إلاّ أنّه أمام تلاحق الأحداث وإعلان الاستقلال، سرعان ما يعدّل موقفه بل يقلبه رأسا على عقب فيكتب في جريدة «La Presse» بعد أربعة أيّام من إعلان الاستقلال «إنّ الغاية المشتركة التي سعت إليها المعارضة سواء المتمثّلة في الحزب القديم أو في أنصار الأستاذ صالح بن يوسف أو في الشخصيّات المستقلّة، قد وصلنا إليها، وهي الاستقلال التّام، فلا شيء اليوم يفصل المعارضة عن الحزب الحكومي (أي الحكومة التي فيها ممثلون عن الحزب الجديد) وعليه فكلّ خصومة حزبيّة ينبغي أن نتجاوزها». وقد نفهم من هذا الكلام أنّه يدعو المعارضة إلى الانضمام إلى الحزب الجديد، ولكن هيهات ! فإنّه يطالب بارجاء الانتخابات التأسيسيّة المزمع إجراؤها ريثما تتمكّن كلّ الشرائح من المشاركة في انتخابات حرّة مفضية إلى تكوين حكومة جديدة تعكس تطلّعات تونس المستقلّة. وهكذا نرى الأستاذ التلاتليّ، لئن اعترف ضمنيّا بخطئه في التقدير للظرف السياسيّ إذ نعى على الأمّة رجوعها إلى الوراء بالاتفاقيات والاستقلال الداخليّ المنقوص والتنكّر إلى مطلب مؤتمر ليلة القدر، فإنّه لم يعلن - كما هو معقول ومنتظر - إقفال باب المعارضة، ولم يدع إلى الانضمام إلى الحزب الجديد، كأنه خشي مستقبلا سيطرة الحزب المظفّر على الساحة الوطنيّة سيطرة تفضي إلى الحكم الفرديّ.

على أنّه انقطع عن الكتابة بجريدة الاستقلال بعد انسلاخه من اللجنة التنفيذية سنة 1956، وبقيت جريدة الحزب القديم على معارضتها إلى شهر أفريل 1960 وشنّت في الأثناء حملة شعواء ضدّ مجلّة الأحوال الشخصيّة (13 أوت 1956) ولكنّ صاحبنا صان قلمه وتورّع عن المشاركة في هذه الحملة التي لا تليق بالمثقّف الوطنيّ التقدّميّ المتحرّر.

وختاما لهذا القسم الرئيسي من عرضنا ننبّه إلى أنّ كافة المقالات السياسيّة للأستاذ صلاح الدين التلاتلي قد جمعت - مع فصول أخرى لزملائه من حزبه أو من أنصار أفكاره مثل صالح فرحات وأحمد بن ميلاد والشاذلي الخلاّدي وفريد بورقيبة ومحمد النعمان وغيرهم - في كتاب صدر عن مؤسسة «أليف Alif» سنة 1991 بعنوان : كتابات من أجل الاستقلال Ecrits pour l'Indépendance (1946-1956).

* * *

علاوة على التدريس والنضال في الصحافة الوطنيّة، اهتمّ الاستاذ صلاح الدين التلاتلي بالأدب فشارك بقسط متفاوت في المجلاّت الأدبيّة الناطقة بالفرنسيّة، وكان كما أسلفنا لا يكتب بالعربيّة بسبب تكوينه الأصلي، إلاّ ما يعرّبه له بعض زملائه مثل أستاذنا محمد سويسي الذي نقل له كتاب تونس الجديدة وفصوله في مجلّة المباحث وجريدة الاستقلال.

من هذه المجلاّت الفرنسيّة نشريّة قصيرة العمر صدرت بالجزائر العاصمة اسمها Forge (ورشة الحديد) في أواخر سنة 1946، ويبدو أنّه كان أحد مؤسّسيها والمسؤول عنها بتونس. كتب فيها فصلين ذوي منزع انطباعيّ شعريّ، يشيد في الأوّل بجمال قرية سيدي بوسعيد، وفي الثاني بالعلاقة الروحيّة التي تربط شرق الشمال الإفريقي بغربه، أي مصر بالمغرب، وبين الهند بڤانجها ومصر ونيلها، وكفاح غاندي الهادي المسالم وحكمة شيوخ إفريقيا، كلّ هذه التأمّلات من خلال «لقاء مع إفريقيا Rencontre avec l'Afrique» - هذا هو عنوان الفصل - أي مع فتاة مرّاكشيّة ذكّره لباسها ووقارها وجمالها بالملكة الفرعونيّة نفرتيتي Nefertiti.

وقبل المجلّة الجزائريّة شارك في مجلّة (إفريقيا الأدبيّة) L'Afrique Littéraire التي ابتكرت نوعا من المشاركة الثقافيّة

بين كتّاب تونسيّين وكتّاب فرنسيّين، فكتب فصلا بعنوان «الجغرافيا والشعر» (فيفري 1941، عدد 4) يأسف فيه - وهو أستاذ الجغرافيا الطبيعيّة والاقتصادية - لتحوّل هذا العلم من الوصف الأدبيّ الجمالي للأماكن والبيئات إلى الشرح والإحصاء بلغة الأرقام. هذه الشاعريّة في الجغرافيا، نستشفّها في فصل آخر له بعنوان (جنوب 42) Sud 42 استعرض فيه مراحل رحلة قادته إلى الجريد التونسي. هذا نشاط مبكّر كما نرى يتبع بقليل عودته إلى الوطن.

وفي جوان 1948 نراه يتولّى إدارة مجلّة (حكمة) Hikma وقد ورثها عن مؤسّسها الفرنسي، وجمع لها ثلّة من الإخصائيين التونسيّين العارفين بالقضايا التونسيّة. وطمع أن تكون أداة وصل بين المثقفين المغاربيّين، فوجّه إليهم نداء للمساهمة بأقلامهم في نشاطها (عدد نوفمبر 1948). وأدرج في هذين العددين فصلا عن جزيرة جربة منقولا عن كتابه «جربة والجربيّون» وآخر عن عمران مدينة تونس.

ثمّ انقطع اسمه وقلمه من المجلّة، وقد أكّد لنا الأستاذ محمد سويسي وكذلك الأستاذ أحمد عبد السلام والأستاذ محجوب بن ميلاد - على تفاوت في التذكّر - أنّ إدارة المجلّة كانت جماعيّة إجماعيّة.

هذه مشاركاته بالفرنسيّة، أمّا بالعربيّة ففي مجلّة المباحث بعشرة فصول بين سنتي 1944 و 1946، أي في فترة ازدهارها حين تولّى إدارتها أستاذنا محمود المسعدي رعاه الله وحفظه للأدب التونسيّ، وقد قال صلاح الدين التلاتلي في حديثه إلى الجزيرة أنّ إصدار المباحث تقرّر سنة 1943 بينه وبين المسعدي والبشروش بالمرسى حيث كان يقطن آنذاك.

هذه الفصول، بعض منها في التاريخ كمقاله المشار إليه آنفا عن نشأة مدينة تونس، وبعضها في الجغرافيا

الاقتصادية والبشريّة : قضايا النقل في العالم، قضايا العمران، قضايا التعليم، وهي مقالات لا تخلو من تعريج إلى القضايا الوطنيّة ومن المجادلة الحادّة أو الساخرة للكتّاب أو الساسة الاستعماريّين كفصله العنيف الذي يردّ به مزاعم المؤرّخ E.F. Gautier عن «عصور المغرب المظلمة، 1927» وقد عنونه بهذا الإعلان الأبيّ : «نعم نحن فخورون بتاريخنا» (سبتمبر 1946)، والملاحظ بهذه المناسبة أنّ الأستاذ التلاتليّ ينبّه قرّاءه إلى النزعة العنصريّة التي تلبس ثوب التجرّد والنزاهة الزائفة في بحوث المؤرّخين والجغارفة والباحثين الغربيّين، فينفون مثلا كلّ طرافة عن الفنّ البونيقي وكلّ ابتكار عن الفكر البربريّ ويظهر هذا الجدال الوطني - بل هذا الكفاح والانتصار للإبداع المغاربيّ - بالخصوص في أطروحته عن قرطاج البونيقيّة (1978).

هذه الفصول المنفصلة قد جمعها صاحبها في كتاب برمّته بعنوان (تونس في تعدّد جوانبها) Multiple Tunisie (الدار التونسيّة للنشر 1985) وأضاف إليها بعض الوفيات مثل فصله الآسف المتحسّر عن صاحبه وزميله محمد بن عبا (نوفمبر 1970) وفصله عن الشيخ الفاضل بن عاشور (أفريل 1970) وترجمته لشارل صوماني Charles Saumagne المؤرّخ والحقوقيّ الفرنسيّ. كما زاد عليها فصولا كان نشرها بعد الاستقلال في شؤون سياسيّة كإعلان الجمهوريّة (ولكنّه عنون الفصل بـ : نهاية ملوكيّة La fin d'une monarchie)، أو التعريف بتونس كالتقديم الذي نشرته له صحيفة ألمانيّة في جويلية 1966 بمناسبة الزيارة الرسميّة التي أدّاها إلى ألمانيا الاتحاديّة رئيس الجمهوريّة. هذا إلى جانب مقالات أخرى في جريدة البشير بن يحمد Jeune Afrique.

هذا الكتاب Multiple Tunisie والكتاب الذي مرّ ذكره Ecrits pour l'Indépendance هما مقالات وفصول مجموعة. وهناك كتابان «سياحيّان» إن صحّ التعبير يعرّفان (بتونس

الدائمة) Tunisie de toujours (1961) وهو مجموعة صور ولوحات مختارة مع تقديم وجيز، وبمواقع أثريّة كالجمّ ومكثر وجكتيس ودقّة (1970).

ولكنّ أهمّ مؤلفاته هي كتاباه عن جربة : جربة والجربيّون الذي كان باكورة بحوثه الجامعيّة وقد صار اليوم في عداد الكتب المفقودة التي تحتاج إلى طبعة جديدة، وكتابه الثاني : جربة جزيرة آكلي اللوطوس Djerba l'Ile des Lotophages (1967) الذي وسّع فيه وفصّل بحثه السابق وزاد عليه و «حيّن» الأرقام والإحصائيات بخصوص الاقتصاد بالجزيرة وواقع السياحة بها. وبخصوص التوجّه السياحيّ، يلاحظ القارئ لكتابه عن الجزيرة أنّه غير مرتاح لطغيان السياحة على حياة سكّانها ومعاشهم، فهو ينعى بإلحاح اندثار الصناعات التقليدية من نسيج وفخّار، وتقلّص الفلاحة والصيد البحري، وبالخصوص يتخوّف من ذهاب الروح والأريحيّة والطيبة والجوّ البيئي وحلاوة العيش التي تجعل من جربة جزيرة أحلام. وقد عاد إلى هذه المعاني في مقالين نشرا له بجريدة لوموند Le Monde الباريسيّة سنتي 1975 و 1977، ممّا يدلّ على أنّه أشرب حبّ جربة موطن أجداده الأبعدين، وقد كان جزاه اللّه خيرا واحدا من مؤسّسي جمعيّة صيانتها.

محمد اليعلاوي
ملتقى الشيخ سليمان الجادوي
(الدّورة الثانية 30 أفريل 1995)

البشير الفورتي من خلال آثاره (1)

ينحدر البشير بن أحمد بن عون الفورتي من عائلة جربية من (المحبوبين) بمعتمدية (ميدون).

ولد بتونس العاصمة في سنة 1884 وفق ماهو مسجل ببطاقة تعريفه المورّخة في غرّة أوت 1947، خلافا لجميع المصادر التي تذكر أنّ ولادته كانت سنة 1882.

وقد كان والده وجدّه من العمّال (القيّاد) بجنوب المملكة التونسية قبل الاحتلال الفرنسي لتونس، وذلك في عهد أحمد باشا باي الأول، ومحمد الصادق باي.

ونشأ البشير الفورتي في عزّ وبذاخة، وتعلّم على معلّمين خصوصيين بمنزله قبل أن ينخرط في سلك تلامذة

(1) نص المحاضرة التي ألقيت بالدورة الثانية للملتقى الثقافي والإعلامي (سليمان الجادوي) بآجيم (جربة) يومي 30 أفريل و 1 ماي 1995.

جامع الزّيتونة الذي تابع فيه الدّروس بصفة منتظمة إلى أن أحرز على شهادة التّطويع.

وبعد أن تخرّج من الزّيتونة، شرع في دراسة اللغة التّركية على يد الأستاذ حافظ أفندي بمعيّة الشيخ صالح الشريف قبل هجرته، كما أنّه درس اللغة الفرنسيّة بالمدرسة الخلدونيّة على الأستاذين خير اللّه بن مصطفى وعثمان السّبعي، كما درس الرّياضيات على الأستاذ علي رضا، ودرس كذلك اللّغة الإيطالية بمدرسة نهج زرقون.

ولمّا كان محبًا للحريّة، ولوعا بالاستقلال كمعظم أبناء جزيرة جربة، فإنّه لم يطرق باب الوظيف، بل أخذ يباشر الأعمال الحرّة، فأسّس مطبعة كبرى، وجلب لها أحرفا عربيّة ممتازة من سوريا ومصر، لأنّ الطباعة في ذلك الوقت كانت على الطريقة الحجرية وبخط اليد.

وبعد تأسيس هذه المطبعة، فكّر في إنشاء جريدة، فبعث بمنشور إلى بعض التجار، والفلاّحين، وأرباب الصناعات ورجال الثقافة هذا نصّه :

(أيها المواطن العزيز !

سلام واحترام، وبعد، فإنّ البعض من إخوانكم الوطنيين قد فكّروا في إنشاء مشروع وطني عظيم، ألا وهو تأسيس جريدة يوميّة كبرى لها مطبعة تخدم البلاد بصدق وإخلاص، تجمع شتات أفكار المفكّرين، وتبثّ في الأمّة آراء الإصلاح من المصلحين، وتكون ميدانا لأقلام الكتّاب، ورياضا للآداب، يجد فيها التّاجر مرغوبه، والفلاّح مطلوبه، والصّانع بغيته، والأديب أنشودته، وتمثّل فيها حالة تونس للرّائين، وأفكار الرّجال المصلحين، وأدبائها البارعين، وساستها المفكّرين، وتجّارها النّاشطين.

تكون جريدة الأمّة وترجمانها ولسان حالها، وتكون

غزيرة المادّة، لها مبدأ قويم، ومشرب رائق، ومبادئ عالية... ومثلكم من يجيب نداء الوطن إذا دعاه... والسلام).

وفعلا أنشأ البشير الفورتي هذه الجريدة، وأطلق عليها اسم (التّقدّم)، وهي ثالث جريدة يوميّة بعد (الرّشدية) و(الزّهرة)، وكانت من أكبر الجرائد وأرقاها شكلا ومضمونا، حيث كان يكتب فيها نخبة من المفكّرين والأدباء من مختلف الأقطار العربيّة والإسلامية، من بينهم جبران خليل جبران، والشيخ عبد العزيز جاويش (و هو من كبار زعماء الحزب الوطني المصري وهو تونسي الأصل مصري المنشأ).

وقد صدرت جريدة (التّقدّم) بصفة أسبوعية منذ 30 جويلية 1907 أولا، وأصبحت يوميّة منذ غرّة أوت 1908.

وكان لها مراسلون ومتعهّدون في معظم أنحاء العالم، مثل :

- دار الخلافة العظمى (تركيا)
- القاهرة
- الإسكندرية
- بيروت
- دمشق
- عكّاوحيفا
- الهند
- طنجة
- فاس
- الجزائر
- قسنطينة
- لندرة
- باريس
- مرسيليا
- ميلانو
- طرابلس

- تبسّة
- تلمسان وسنغفورة الخ...

والمتصفّح لهذه الجريدة، يلاحظ أنّها كانت تعالج معظم القضايا التي تشغل بال التونسيين، وتجاهر بوطنيتها، وتدعو لخدمة المصالح التونسية، كما تزوّد القرّاء بالأخبار السياسيّة والأدبيّة والاقتصادية التي تجري في أهم أقطار العالم.

وقد توقّفت (التّقدّم) عن الصّدور سنة 1911 بسبب أزمة مالية ودفعت بصاحبها إلى بيع المطبعة.

هذا وإلى جانب جريدة (التقدّم)، أصدر البشير الفورتي جريدة أسبوعية فكاهيّة هزلية، عنوانها (ولد البلاد)، وأسند إدارتها إلى شخص اسمه (خميّس الطّرلّي).

وصدر العدد الأول من هذه الجريدة في 19 أفريل 1910، لكنّها لم تعمّر طويلا، ولم يصدر منها إلاّ تسعة أعداد فقط، إذ توقّفت عن الصّدور في 23 جوان 1910.

والملاحظ أنّ هذه الجريدة لم تصدر عن مطبعة (التقدّم)، بل في مطبعة حجريّة، ومعظم مواضيعها كتبت باللغة الدّارجة ومحلاّة بصور كاريكاتورية على غاية من الطرافة والإبداع.

وقد حيّا الشاعر صالح سويسي القيرواني هذه الجريدة عند صدورها قائلا :

(ولد البلاد) بدا بثوب حداد ... حزنا على التّأخير والإنكاد
يشكو من الألم الذي عمّ الورى ... ومصائبا تربو عن التّعداد
وتهتكا في طيّه فقر به ... موت العيال وضيعة الأولاد
لكنّه جعل المساخر منهجا ... لجدّ شيمة بارع نقّاد
ولربّما ضحك الفتى ودموعه ... نزلت بداخل موجعات فؤاد

والمتصفّح لهذه الجريدة الهزلية، يلاحظ أنّها كانت تتطرّق إلى مواضيع اجتماعيّة وسياسيّة تعتبر في ذلك الوقت جريئة وتقدميّة، من ذلك أنّها مثلا كانت تدعو إلى تعليم البنت، والمساواة بينها وبين الفتى في الحقوق والواجبات، وعدم إجبارها على التزوّج إلاّ باختيارها ورضاها.

فلنستمع الى هذه الصّرخة الدّاويه من الأعماق على لسان فتاة من قصيدة بعنوان (شكوى فتاة الشرق) نشرت بالعدد الرابع من (ولد البلاد) في شهر ماي 1910.

تقول هذه الفتاة :

هذّبوني، واطلبوا منّي الحجا تجدوني فقت بنت المغرب
إن أكن جاهلة فالجهل من سجنكم إيّاي خلف الحجب
حيث لا درس لعقلي نافع حيث لا بدر لضوء الكتب
ما علمتم أنّني جوهرة سطحت إن صقلت بالأدب
ربّة الحشمة والقلب الذكيّ والحنان المفرح المكتئب
إن أهذّب بان نوري للورى ساطعا ما فوق نور الشهب
تخلق الابنة في الغرب فتو ضع في مدرسة مثل الصّبي
تكسب العلم فيعلو قدرها ولآل العلم أعلى الرّتب
ولها حقّ انتقاء الزّوج لا لأبيها أو أخ ذي أرب
وأنا ما عشت أقضي العمر في غرفتي في جهل أمّ وأب
زوّجاني من أرادا لا الذي أصطفيه يا لظلم مغضب
يا رجال الشّرق، بالله اسرعوا أنصفوني للمعالي أدأب

وبالنّسبة لنقد الأوضاع السائدة إذ ذاك في مختلف مجالات الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، توخّت هذه

الجريدة طريقة هزلية ساخرة، فمثلا جاء في أحد أعدادها حول نقد المدرسين بجامع الزيتونة :

في الجامع الأعظم

(من الأخبار الشّائعة أنّ جماعة المشايخ المدرسين، سيجعلون اعتصابا على إلقاء الدروس إسوة بالطلبة، ولكن قبل الشروع في ذلك، سيحرّرون عريضة تتضمّن مطالبهم التي لم يظهر لهم منها ولا واحد، إلاّ الزّيادة في المرتّب، وتقليل أوقات الشّغل، ووضع مخادد ومساند وجراري وبطاطن أمام كلّ سارية وذلك لراحتهم البدنية، ولأنّ ذلك ربما يساعدهم على هضم القنارية والمقرونة) الخ...

وتحت عنوان : تلغرافات عموميّة، جاء بالعدد الثالث :

الحدود الطرابلسيّة

(جاءنا من طرابلس، أنّ في هذه الأيام الأخيرة، هبّت رياح عاصفة، بكيفيّة غير معهودة، حتّى أنّها أثارت رمال الصحراء بعثتها نحو الحدود، فاندثرت الحدود بين ولاية طرابلس، والمملكة التونسية. وعليه فلا حدود ولا سدود).

وتحت عنوان :

يا واللّه قابله !

(نهار السّبت الفارط، كانت هرجه في الحاره على خاطر امرأة يهوديّة كانت ماش تولد، وتعيّط بقدر ما تنجّم. وبالرّغم على كلّ ما بذلت القابلة من المرارة لم تتوصّل إلى تخليص اليهوديّة ولكنّ في آخر وقت استعملت حيلة ماسبق إليها حدّ. وهي أنّ القابلة خذت زوز دورو فضّة، وشقشقتهم تحت الحبلى. وما سمع الولد حسّ الفضّة إلاّ مارعش وهبط على راسو، وخلصت أمّه. وبلغنا من ناس انحارة أنّ والدين ها الولد عازمين على جعل ولدهم بانكاجي!

* * *

وإثر توقّف جريدتي (التّقدّم) و(ولد البلاد) عن الصّدور شرع البشير الفورتي في القيام بجولة عبر البلدان العربيّة، بدأها بطرابلس بوصفه مراسلا لجريدة «الهدى» اليوميّة التي كانت تصدر في (نيويورك) لتزويدها بأخبار الحرب التي شنّتها إيطاليا على هذا البلد الشقيق سنة 1911.

وفي طرابلس كان موضع حفاوة وترحيب وإكرام من قبل الوالي رجب باشا، وأقام هناك مدّة طويلة، وتزوّج بامرأة من عائلة شهيرة، و،أنجب منها ولدا.

ثمّ بعد ذلك، سافر الى مصر، واتّصل بمختلف الجرائد التي كانت تصدر في ذلك الوقت، مثل : اللّواء، والمؤيّد والمقطّم، وغيرها... وتعرّف على كثير من أقطاب العالم الشّرقي، وعلماء مصر، وأدبائها، أمثال : علي كامل، ولطفي السيّد، ومحمد فريد، وأحمد زكي، والشيخ بخيت، وغيرهم، وكانوا جميعا يكنّون له كلّ تبجيل وتقدير.

ثمّ رجع البشير الفورتي إلى تونس، وشارك في تحرير جريدة (الاتحاد الإسلامي) مع علي باش حانبه.

وبعد الحرب الطرابلسية، سافر إلى أوروبا، ثم استقرّ في تركيا بالاستانة، وشارك في إصدار جريدة (الهلال العثماني) مع الشيخ عبد العزيز جاويش، وهي جريدة يومية كبرى، كما أصدر هناك مجموعة من الكتب، منها :

- كتاب العالم الإسلامي في ثلاثة أجزاء.
- وكتاب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية.
- وكتاب الهلال والصّليب.
- ورسالة عن حسن المزوغي (وهو شاعر من القلعة الكبرى) كما ألّف الفورتي كتابا هامّا بعنوان : (فضائح الاحتلال الفرنسي في شمال إفريقيا) بيّن فيه حالة المسلمين في شمال إفريقيا إزاء الاحتلال الفرنسي، وما يقاسيه المسلم

من الفرنسي من الإهانات والاضطهادات والعسف والجور والتعدّي على الحقوق والحريات...

هذا وكان عندما حلّ باسطمبول سنة 1911، نظم قصيدا يحيّي فيه هذا البلد، ويمدح فيه بعض من عرفهم من أصدقائه يقول فيه، وهو بعنوان : (تحيّة مخلص).

أيا وطن الأتراك لازلت موطنا ... تكامل إعزاز له (رشاد)
يضنّ بك الدستور عن كلّ معطب ... وتحمي حماه فرقة (الاتّحاد)
أولئك قوم يعملون بال هوى ... لتحظى بمجد شامخ وسداد
لقد بذلوا وقتا نفسيا وهمّة ... وكحّلوا أجفانا لهم بسهاد
على أن غواة البلاد تمتّعوا ... ببسطة عيش مع لذيذ رقاد
فيا شعب إن لم تدر ما نلت بهم ... فأنت بواد والرّشاد بواد
فمن بينهم بطل المعامع من غدا ... بما بين جنبيه البلاد يقاد
فذلك (إسماعيل حقّي) وحبّذا ... بأن يغدو مثالا لكلّ مفاد
على منصب والدّهر دون مقامه ... من أحسن جيش في أجلّ بلاد
كذا (شرب) ذاك الذي بات ذكره ... يفوق شذاء المسك في كلّ ناد
على أن ( ) فينا أجلّ ما ... به شأوا يفوق مراد
وزير خطير فيلسوف متوّر ... له عزمة مقرونة برشاد
أنار عقول الشعب بعد ظلاله ... فأدرك أن العلم خير مراد

هذا وفي المدّة التي قضاها في (إسطمبول)، كانت له اتصالات برجالات (تركيا الفتاة)، كالعلاّمة سليمان البستاني، والزّهراوي، وشكيب أرسلان، وجلال نوري، وعدد من أعضاء مجلس المبعوثان من مختلف الولايات التّركية، كما تعرّف على رجال معروفين من مشاهير الهند وجاوه، وغيرها...

ومن خلال رسالة بعث بها إلى والده من الأستانة في 10 جوان 1912 يتبيّن لنا أنّه قضى هناك فترة مريحة، ممّا جعله يفكّر في الاستقرار نهائيا بتلك الدّيار.

يقول الفورتي في هذه الرسالة :

«الاستانة العلية في 10 جوان 1912

جناب والدي سيّدي أحمد الفورتي دام عزّه.

السّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته. وبعد، فقد وصلني جوابك المؤرخ في 3 جوان، وقبله وصلني الجواب الذي به صورتك العزيزة، فقبّلتها، ووضعتها بجيبي حتّى تكون دائما معي.

أما أنا فبخير وعافية، ولم نحتج إلى شيء. وكلّ يوم فطوري وعشايا باللحم، نوعين، ثلاثة، والفاكهة، وساكن في (أوتيل أورخانيا). كاري بيت بالشّهر، مفروشة كأحسن ما يكون. ودراهمي في جيبي. وأنا في عزّي وناموسي، ومحترم من كلّ النّاس على اختلاف طبقاتهم. وأريد بعد أن أثبّت مركزي رسميا، نرسل إليك لتأتي أنت ووالدتي والعائلة. وعمّا قريب تصدر إليّ الإدارة السّلطانية، ولا غرابة أنها تصدر قبل أن يصلك جوابي هذا. وأنا حارص غاية الحرص في جمع شملنا، ولكن السّرعة من الشّيطان، وكلّ الأمور في هذه البلاد يلزمها الصّبر. ومن صبر ظفر. ونحن والحمد للّه صبرنا كثيرا، وقد أجاب اللّه دعاءكما بالخير. وبعد صدور الإرادة السّنيّة، نعلمكم بجواب عن الوظيفة، وعن كلّ شيء بالتّفصيل.

أطلب منك بأن ترسل إليّ الجواب عند السيد سالم الكاتب، فلا تظنّ أنّني عنده، بل لأنّني كنت في (أوتيل) ونقّلت منه لما أحسن وأرخص. ولم نقبل ضيافة أحد بالرغم من إلحاح الكثيرين، مثل : سالم الكاتب، وأخوه عبّاس

الكاتب، والشيخ إسماعيل والسيد المكّي بن عزّوز. وهم يحترمونني احتراما كلّيا.

جاء الشيخ الثّعالبي والجعايبي، وأنا نجتمع بهما قليلا لمّا نخرج من الشّغل. وأحيانا باليوم والاثنين لا نراهما، نشتغل مع الشيخ عبد العزيز جاويش، وهو يعتمدني في كلّ شؤونه حتّى شؤونه الدّاخلية. ودراهمه بيدي بالألف والإثني عشر مائة ليرة. وأنا الذي أذهب للوزراء والنّظارات للبحث عن الأمور التي تخصّ الجريدة [الهلال العثماني]. وأمكنني أن أتعرّف على الكثير منهم. ومسألتي هم الذين يحضّرونها ويهيأونها ويسلّمونها لي وأنا في محلّي.

وهناك أشياء أخرى لا يمكنني أن أصرّح لكم بها، لأنّ البوسطة بيد فرنسا، والموظفين الفرنسويين لا ثقة لي فيهم حتى لا يفتحوا جواباتي...».

ويختم هذه الرسالة بالإشارة إلى جمال الإستانة وما فيها من مناظر طبيعيّة خلاّبة، ويطلب من والده أن يتحلّى بالصّبر وسوف يعمل على إخراجه من الظّلمات إلى النّور.

وبعد مضيّ أربعة أشهر من تاريخ هذه الرّسالة، أي في شهر أكتوبر 1912، بعث إلى والده برسالة أخرى تختلف تماما عن الرّسالة الأولى، إذ أنّ الأحوال تغيّرت، وانقلبت رأسا على عقب، حيث ألقي القبض في مصر على الشيخ عبد العزيز جاويش. واندلعت الحرب في تركيا، وأصبح الفورتي محلّ بحث من طرف البوليس المصري الخ...

ولعلّ من المفيد أن نقرأ على مسامعكم هذه الرسالة التي تصف وصفا دقيقا ما كان يجري آنذاك من الأحداث الخطيرة في تلك الرّبوع.

«الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول اللّه

الأستانة العلية في 4 أكتوبر 1912

جناب والدي العزيز سيّدي أحمد الفورتي المحترم

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته. وبعد، فالسّؤال على صحّتكم وأحوالكم. أمّا أنا فصحّتي على غاية ما يرام، وأحوالي حسنة والحمد للّه. وقد جاءت الأخبار من مصر بأنّ الشيخ عبد العزيز جاويش عمّا قريب يفرج عليه، ويطلق سراحه، وذلك يكون بمجرّد وصول مدير البوليس المصري الذي جاء إلى الأستانة للتحقيق وأخذ شهادة الموظفين والمحرّرين الذين كانوا معه. وقد أدّيت شهادتي بكلّ احتياط، وبرّأت ساحة الشّيخ، وكذلك كلّ الشّهود. محمد نعمان استرحم من فرنسا وسافر إلى مرسيليا قبل أن يتّصل بأمر العفو. وأمس التّاريخ ركب بابور البحر. الأستانة كدار حرب في هذه الأيام. الطّبل يضرب في كلّ حومة، والمظاهرات بالآلاف من الخلق في الشّوارع. والصّياح : الحرب ! الحرب ! ودوائر الحكومة مفتوحة في هذا اليوم. والنّاس متهيّجة. والقلوب في غليان. والحماس بالغ منتهاه وأمس التاريخ ذهبت التّلامذة وهم آلاف يحملون الرّايات، ويصيحون : الحرب ! الحرب ! الى صوفيا عاصمة البلغار، حتّى وصلوا إلى (يلدز) قصر السلطان وصاحوا : يعيش السلطان ! الحرب ! وكان هناك جميع الوزراء، وشيخ الإسلام، وقناصل الدّول، وقد أطلّ السّلطان من النّافذة، وألقى عليهم عبارات زادت في حماسهم، وباتوا الى آخر الليل يطوفون الشّوارع. وقد رأيت حركة حماس لم أراها من قبل قطّ. وكلّ المراكب اليونانية والبلغارية حجزت، وهي نحو السّتّين، حتّى أنّ واحدة أرادت أن تدخل البحر الأسود فمنعوها، فأرادت الفرار، فأرسلوا عليها القنابل من القلاع حتّى وقفت، ونزعوا الرّايات وأبدلوها برايات عثمانيّة. (الأرنؤوط) أرسلوا بأنّهم مستعدّون للحرب عن آخرهم. ومن كلّ الولايات جاءت التلغرافات بأنّ كلّ النّاس مستعدة وحاضرة للحرب. الشمندفير صارت كلّ الخدامة فيه عساكر وضبّاط. الأحزاب

التي كانت في شقاق ونزاع قد اتّحدوا جميعا وصاروا يدا واحدة، كلّ الجرائد صارت تتلقّفها النّاس ويتخاطفونها، وأقلّ جريدة تطبع (50 ألف) نسخة. هذه الأخبار هنا...»

ويختم هذه الرسالة بالتّراجع في جلب عائلته إلى الأستانة فيقول : «... لا يمكن الآن التكلّم في مسألة سفركم إلى هنا لأنّ الوقت غير مناسب كما علمت من بيان الحالة».

بعد هذه الفترة الحاسمة من حياة هذا الرجل، وقبيل الحرب العالمية الأولى، رجع إلى مسقط رأسه تونس، حيث استأنف نشاطه السياسي والاقتصادي، فأسهم في إنشاء عدّة شركات ومشاريع تجارية بمشاركة عدد من أصدقائه. فقد أنشأ (شركة النهضة الاقتصادية التونسيّة) التي كان يرأس مجلس إدارتها حسن قلاتي، ويسهم في رأسمالها :

- البشير الفورتي
- محمد الرياحي
- محمد ماجول
- الطيب بن عيسى
- الشاذلي المورالي
- أحمد العنابي
- الطاهر المهيري
- محمد الصالح ختّاش
- الحاج علي بسرور
- فرحات بن عياد
- محمد المقدم

ثمّ أسهم في تكوين (المصرف التجاري العربي) وهي شركة ذات رأسمال متغاير، تأسّست لتوسيع نطاق التجارة

والصناعة التونسيّة. وكان يرأس مجلس إدارتها (حسن حسني عبد الوهاب) وتتركب هذه الشركة من ثلاثة أقسام كبرى منفصلة عن بعضها من حيث إدارتها الدّاخلية وحساباتها الفرعيّة، وهي :

1) المعهد التّجاري : وهو يهتمّ ببيع وشراء جميع فصول العطريّة والحبوب والزّيت والقطن والصّوف والحرير والمنسوجات والجلد، وغير ذلك. وهذا القسم وقع فتحه بسوق القرانة عدد 156.

2) المصرف (البانكة) ويهتم :

- بصرف الحوالات التجارية للمساهمين في الشركة من التجار وأرباب المصانع.

- التّسبقة على البضائع التي للحرفاء المساهمين، وذلك بطريقة تأمين البضاعة بمستودعات الشركة.

- استغلال المال على ذمّة الغير في آجال الدّفع المعيّنة له سواء بالإيالة التونسيّة أو خارجها.

- تأمين الأموال.

3) النّيابة والتوسّط : هذا القسم يشتغل بنيابة المؤسسات التّجاريّة في بيع مصنوعاتها وبضائعها وترويجها وتوريدها للتجّار كما يتعهّد بتصدير المنتوجات التونسية إلى خارج القطر. وأهمّ وظيفة لهذا القسم هي إفادة التجّار بالإرشادات مجانا ومدّيد المساعدة لهم في كلّ ما يتعلّق بمهنتهم.

ثم أسهم في إنشاء (شركة الاتحاد التجاري) بمشاركة أحمد العنّابي والشيخ سليمان الجادوي وأحمد المحيرصي وغيرهم...

وقد ساعدهم على تكوين هذه الشّركة الشيخ عمر بن عاشور الذي بالإضافة إلى خطته العلميّة حيث كان مدرّسا

من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، وبالمدرسة الصادقيّة، كان له نشاط اقتصادي مرموق، وكانت له عدّة محلاّت تجاريّة، وكان يجلب السّلع من جربة وقابس وغيرها، ويبيعها بتونس العاصمة، وكان يعتبر من كبار الأثرياء.

ثم فتح البشير الفورتي محلاً لتجارة العطريّة بفندق الجديد وشارك الطيب الحدّاد في مشاريع تجاريّة، ثمّ أسّس معملا للمشروبات الغازيّة.

وفي خصوص هذا المعمل، ومن باب الطّرافة والتّفكّه، وجدت ورقة بخط الفورتي، هي عبارة عن مسودّة لإعلان تجاري يقول فيها تحت عنوان :

لا تقرأ هذا

(لا نقول لك أيّها القارئ ولا نرغبك، ولا نلفت نظرك بصفة إعلان لفازوز الفورتي الذي اشتهر اشتهارا كبيرا، وعلى الأخصّ في المحلاّت الإفرنجية والإسرائيليّة قبل العربية، لما وجدوه فيه من النّكهة واللّذة والفائدة الصحيّة. فقد أجمعت كلمة الأطباء مسلمين وغير مسلمين على أنّه مفيد للجسم، مقوّي للشّاهية، مزيل للتّخمة والمغص، مهضّم للأكل، مفرج من القلق، فمن كان مريضا أو على قلق من معدته فما عليه إلاّ شرب هذا الفازوز النّافع اللّذيذ المفيد، فينظر النتيجة سريعا.

فحرّضوا على شربه تجازون الجزاء الأوفى. وصفوه لمرضاكم فإنّه فيه شفاء للنّاس.

أمّا الشّروبوات، فلنفاستها كاد أن لا يكون أيّ محلّ عظيم أو حقير لا تجد فيه مشروب الفورتي، يقدّم للضّيفان، بكلّ فخر وامتنان. فزدق ولوز وحبّ ملوك وبردقان، أفبحسنه ونظافته تكذّبان!).

بعد هذا النّشاط المكثّف في المجال الاقتصادي

والتّجاري الذي كان جلّه فاشلا، ولم يكتب له الدّوام، وذلك بسبب مزاحمة اليهود لكلّ هذه المشاريع، كما ذكر ذلك في إحدى مذكّراته، وهو حديث يطول، اتّجه اتّجاها جديدا يتماشى مع تكوينه الأدبي، وتجربته الصّحفيّة، فأسس شركة سمّاها (مكتب الصحافة العربية) هدفها :

(نشر الأخبار وغيرها ممّا يهمّ الناطقين بالضّاد في كلّ بلاد، تراسل الصّحف والمجلاّت والمؤلّفين والمجامع العلميّة، والمعاهد الاقتصاديّة، تعطي الإرشادات للكاتبين والأثريين والاقتصاديين في كلّ ما يتعلق بالبحوث، والحوادث، والتاريخ، والعوائد والصور الحديثة والقديمة، وأخبار الوقائع، والزعماء، والعلماء والأدباء، واقتصاديات ما يناسب كلّ جهة، وما يهمّ كلّ بلد، وما يفيد كلّ جريدة لبحوثها وما ترمي إليه من سبق وانفراد بميزات وفوائد خاصّة. ترسل كلّ جريدة أو مجلّة فيما تريده وما يراد منها.

وعلى الأخصّ المسائل الإفريقية البكر التي لا توجد في جرائد الغرب وما يوجد فلا يخلو من غرض أو جهل، فيكون مشوّها وعلى غير حقيقة.

... يعضد هذه الشركة، ويناصر هذا المشروع نخبة من العلماء، والأدباء، والتجّار، والصحافيين، إفرنج وعرب، وغيرهم من جهات كثيرة ومراكز معتبرة، وتعتمد في أخبارها، وبحوثها. وموضوعاتها، وإرشاداتها على موارد عالية، ومدارك سامية، عرفت التجرّد وعدم التّحيّز والتّعصّب، واشتهرت بالنّزاهة في أعمالها، والخبرة بالخدمة، وممارسة الصّناعة الصحافية السّنين الطويلة ولها الذّوق الصّحفي، وتعرف ما يلذّ ويروق.

... ولديها من المخبرين، والكرام الكاتبين، والعلماء العاملين، والأصدقاء المخلصين في غالب بلدان الشمال الإفريقي وأوروبا، وجزائر الهند الهولندية، والهند الفرنسية، والإنقليزية،

والجزيرة العربيّة وغيرها من البلاد الشرقية والتّركية والعراقية والسّورية والمصرية والطّرابلسية والصحراء والسودان...).

وعندما فكّر نخبة من المثقّفين التونسيين سنة 1947 في تأسيس (دار الهدى للطبع والنّشر) كان البشير الفورتي من المتحمّسين للفكرة، والعاملين على إبرازها لحيّز الوجود.

وقد تطوّرت هذه المطبعة، وهي الآن من أكبر المطابع التونسية، وتحمل اسم (الشركة التونسية لفنون الرّسم) ويديرها باقتدار وحزم الأخ المنصف بن جمعة.

وقد ساهم الفورتي أيضا في تأسيس مطبعة (النّهضة) قبل ذلك في بداية العشرينات.

حضرات السّادة والسيّدات.

بعد استعراض هذه اللمحة الخاطفة والثريّة بجلائل الأعمال لهذا الرّجل الذي كرّس حياته لخدمة وطنه، لا بدّ من ذكر أنّه تعرّض لمظلمة كبرى كان لها شديد الأثر في نفسه الى آخر حياته وهي الوشاية التي قام بها بعض السّفلة، والتي تتمثّل في اتّهامه بالعمل مع الألمان إثر احتلالهم لتونس زمن الحرب العالميّة الثانية وهي تهمة كلّفته سنتين قضاهما بالسّجن العسكري ظلما وعدوانا، حيث أنّ المحكمة بعد أبحاث وتحرّيات حكمت عليه بعدم سماع الدعوى.

ومن رسالة بعث بها من السّجن العسكري إلى المحامي المعروف (ديران انقليڤيال) نستطيع أن نتعرّف على الظّروف والملابسات التي كانت تحفّ بهذه المظلمة الشنيعة.

يقول الفورتي في هذه الرسالة :

(جناب المسيو دوران انقليڤيان المحترم.

هذا جواب لكم من صديقكم القديم، وضيفكم وحريفكم البشير الفورتي صاحب جريدة (التقدم) اليوميّة العربيّة

بتونس سابقا، ومكاتب جريدة (الهدى) اليوميّة الأمريكيّة التي تصدر منذ 50 سنة بانتظام في نيويورك، والذي تولّيتم الدفاع عليه في بعض قضاياه الخاصةو دفاعا بديعا، وكنت ممنونا لكم. والآن أنا بالسجن العسكري منذ عام ونصف موقفا في تهمة واهية مختلقة ملفّقة، دبّرها أفراد من البوليس وأذنابهم الذين كانون يخدمون في ركاب الألمان، ويقدّسونهم ويعملون لصالحهم. أولئك الذي كانوا يحاربون العامّة، ويهاجمون عموم النّاس في الشوارع والقهاوي العربيّة، ويأخذونهم غصبا وكرها للخدمة عند الألمان والنّاس يفرّون منهم، ويتوارون عن أعينهم، ويختبئون في الزّناقي والمحلاّت وهم يبحثون عليهم، ويسوقونهم والعصيّ في أيديهم، والسّلاح معهم، ويملأون الكميونات بهم، ولما يفرّون من الخدمة يبحثون عليهم ويرجعونهم للخدمة ويمقتونهم حتى في أجرتهم نصحا للألمان. وكم من (ڤوليست)، وكم من شيوعي سجنوهم وعذّبوهم بالضّرب وأنواع التّعذيب من كلّ الأجناس مسلمين ويهود وحتّى فرنسيين إرضاء للألمان الذين يخدمونهم بإخلاص).

ويواصل الفورتي وصف الجوّ الذي كان سائدا في ذلك الظّرف، الى أن يقول في ختام هذه الرسالة :

(... وفي هجومهم على محلّي، وخلع وتكسير باب داري ليلا، وأخذهم أموال زوجتي (تسعة عشر ألف فرنك) وأشياء أخر...

فانظر الى هذه الألاعيب الشيطانية الخبيثة، وهذا الازدراء بكرامة الأفراد والحكومة الجديدة. وفوق ذلك يلزمني المسيو (لوكا) بدفع خمسة وعشرين ألف فرنك له. ودفعتها زوجتي على يد شهود بعد أن ضربوني وأهانوني وهددوني بالموت بأن وضعوني أمام عساكر بسلاحهم موجهة إلي وأطلق عليّ المسيو (جوست) الفرد مرّتين. لماذا هذا الكلّ ؟ ولماذا هذه الأعمال ؟ هل يمكن لي أن أفهم أنّ ذلك لأجل السّكوت على

النّهب الذي وقع ؟ وهل يمكن لي أن أفهم أنّ تركي بالسّجن مدّة طويلة حتّى أنسى هذا الاعتداء الفظيع ؟

... فالشكاية لكم لتنصروا الحقّ والعدل، وأنتم من رجال فرنسا الجديدة والقديمة الذين تعتمد أفكارهم لإخلاصكم لأمّتكم ودولتكم. فالرجاء في اللّه وفي أمثاكم الذين لا تأخذهم في الحقّ لومة لائم، واللّه يعينكم، الداعي لكم : البشير الفورتي بسجن القصبة).

وبعد إطلاق سراحه من السّجن، لم تهدأ له عاصفة، وبقي يبعث بتقارير ورسائل إلى مختلف المسؤولين في الحكومة الفرنسية، يلفت نظرهم الى ما يجري في تونس من مظالم تسيء إلى حرّية الفكر، وإلى حقوق الإنسان.

وقد بعث بتقرير مطوّل إلى (الجنرال ديغول) في جانفي 1945 يصف فيه الحالة السّيئة التي انتابت البلاد قائلا :

(... إنّني يا جناب الجنرال، أرى في هذه البلاد أمورا لو بلغتك على حقيقتها لأحرنتك، وتبثّ في ساعد العاملين الفشل، وتزرع في القلوب الوهن.

إنّ الإدارة بتونس على غاية من الفوضى والارتباك، وإن القائمين بها لا يريدون إصلاحا أو نجاحا، لأنّهم يستفيدون من وراء ذلك فوائد شخصيّة عظيمة. وقد أثرى غالبهم من الاحتكار والرّشوة، ... الصحّة على غاية من الإهمال والأدوية لا وجود لها إلاّ بالأثمان السّوداء، والأمراض تفتك بالنّاس فتكا ذريعا.

والجرائد لا تقدر أن تكتب، لأنّ سيف المراقبة مسلول فوق أعناق الكاتبين...).

وهو تقرير طويل يتعرّض فيه إلى الفقر والأميّة والبطالة، واختلال الأمن، وغير ذلك ممّا يقاسيه الشعب التونسي من المستعمر الفرنسي آنذاك.

ويختم هذا التقرير بالتوجّه إلى (الجنرال ديفول) قائلا له : (إن المسؤول الفرنسي لا يفكّر أنّ ذلك يجلب معرّة لأمّته أو دولته أو يعطّل سير إصلاحها أو يزعزع كيانها المتجدّد الذي تعمل أنت له. ولا تجد من أمثال هؤلاء الزّعانف وليًا ولا نصيرا. فلا تركن إليهم بطيبة قلبك، فإنّهم غادروك، لا وطنيّة لهم ولا إيمان، بل إنّهم عبيد الدّراهم، لا قيمة لهم في ميزان الشّرف، ولا يذكرهم التاريخ إلاّ ملعونين).

حضرات السادة والسيادات.

لقد أسهم البشير الفورتي في الحياة الصحفية بتونس طيلة نصف قرن، وكتب الفصول العديدة في مختلف الجرائد والمجلات التي كانت تصدر بتونس مثل : جريدة (تونس) و(المنار التونسي) و(المذياع) و(صوت الفلاح التونسي) و(النّديم) و(الزّهرة) و(المجلّة الزيتونيّة) وغيرها...

وكانت معظم كتاباته تمتاز بخفّة الرّوح، والدّعابات الرّقيقة، والفكاهات المرحة.

فهذا مقال كتبه في العدد الممتاز من جريدة (النّديم) سنة 1917، وهو بعنوان :

(قطعة من رحلة في مملكة الضحك)

(خرجنا من أرض (الجدّ) ودخلنا عالم (الهزل) على طيّارة هوائيّة، وزوارق جويّة، وكانت مملكة الضّحك من أشهر الممالك وأقربها إلينا، وأرقاها تجارة وصناعة وزراعة، وعلما أدبيا وماديًا، اختراعات فنّية، وكمالات نفسيّة، ثروة هائلة وأمن وراحة وسعادة دائمة، وهذا كلّه بالنّظر للممالك المجاورة لها، وكانت حالتنا على غير ما يرام، دوار دائر برؤوسنا، وعسر مستحوذ على أمعائنا من شدّة الزّوابع الجويّة، وحركة الرّياح السّمارية، سألنا عن أحسن فندق فدلّونا على أوتيل (شرلوك المفلوك)، فإذا هو بالمفلوكين مدكوك، وبكلّ جهد

أمكننا الاستحصال على بيت مؤقّتا، فتركنا فيه عفشنا وخرجنا مع الأدلّة نتفسّح في البلاد، ونستفيد من هذه المملكة ما فيه عبرة وذكرى لقومي لعلّهم يعقلون ويتّعظون ويعتبرون، ويلزم أن نعرّفها للقرّاء من الوجهة التّاريخيّة والجغرافيّة بأقسامها، ونتعرّض لسياستها الحاضرة وموازنتها بالماضية، ووصف عمارتها وقصورها ودورها، وحكومتها وساستها وجمعياتها وشركاتها، وملاهيها ومقاهيها، ومجالس الأنس فيها.

هذه كليمات عابر سبيل أدّى به المطاف في بعض غدواته وروحاته، لبلاد الجنّ في تجاراته، مرّ بهذه المملكة فبقيت صورة بذهنه أراد عرضها على القرّاء.

جغرافيتها : تتركب هذه المملكة من الأشداق السّفليّة والعليا والأحناك، وإليها ينسب الإمام الحنكاوي.

يحدّها شمالا مملكة أنف النّاقة، وجنوبا جمهوريّة شمهروش بك، وشرقا مملكة الشّقارمة، وغربا الولايات الهندية ذات التّاج الشّوكي. قاعدتها الفاكهة، وأشهر بلدانها المسرّة والنّزهة والرّياقة، وبها من الأدوية ما لا يذكر معه (السّان) و(التّايمس)، وأشهرها وادي العسل، وله حلق كحلق الوادي وعندنا ولي يخص بالشراب، أو يفعم بالبعوض والذّباب قطّ أبدا، وله عيون لا (عوينة) واحدة، ولكن لو كانت هناك قلوب لخشينا عليها من الموت، لأنّ كثرة الضّحك تميت القلب !).

قال عنه حسين الجزري صاحب جريدة (النّديم) : (البشير الفورتي أنتيكة الصحافيين، وبقيّة جيش المحرّرين السّالفين، شاهد العصرين، وحارب في (صفّين)، وخدم مع الشّرقيين والغربيين والأمريكيين، وهو الآن من المتقاعدين، يدعو بالفوز لجيش المجدّدين، في دائرة الدّين.

النديم – 16 فيفري 1929

وبالإضافة الى نشاط الفورتي الصّحفي والتّجاري، فقد كان مدرّسا للّهجات الإفريقية والآداب والعوائد والأخلاق التونسيّة والإسلاميّة بنادي الآداب للآدباء البيض وقرطاجنة الذي كان يرأسه الأب (ديميرسمان) مع شيخ الأدباء محمد العربي الكبادي الذي كان يدرّس الأدب العربي بمعهد الآداب العربية لآباء البيض.

وكان الفورتي صديقا حميما للأب ديمرسمان، وكان يساعده في جلّ الأبحاث التي كان يقوم بها حول الحياة الاجتماعية بالبلاد التونسية، والتي كان ينشرها بمجلة (IBLA).

وقد حافظ الفورتي على المثل العليا التي كان يتحلّى بها وعلى وطنيته الصّادقة إلى آخر عمره رغم شيخوخته، ناهيك بأنّه، وهو في سنّ متقدّمة، بعث برسالة إلى المقيم العام الفرنسي يقول له فيها :

(كتاب مفتوح لجناب العميد) [وهو Peyrouton] (أكتب إليك بإخلاص وحسن نيّة، لأنّني شيخ، وربما أشعر بأنّني على أبواب الأبديّة، فليس طمع لي فيما أنت ستتولاّه من الحكم ولا مأرب لي في ما يطمحون إليه ممّا أولاكم اللّه عليه، غايتي خدمة بلادي بحقّ وصدق.

إنّني صريح فيما أسديه إليكم من النّصائح ولا خوف لي منكم، ولا طمع لي فيكم، وقد عشت في هذا المعترك الحيوي، وغلبت وغلبت، وهزمت وانتصرت، سبرت أخلاق الأمم، ودرست أحوال البشر، ورميت في كلّ ميدان بسهم، وانزويت بعد أن ضربت في الأرض في الطّول والعرض، شاهدت معامع الحريّة والاستبداد، ومصارع العدل والظلم، وميادين الإنسانيّة واستعباد البشرية، وبلاد النّور والجور، والمدينة والوحشية، تضيت في خدمة ركاب صاحبة الجلالة الصّحافة عشرات السّنين عرفت وكوّنت علائق تعارف بهذه

البلاد، والجزائر وطرابلس والمغرب ومصر والبلاد العربيّة سوريا وغيرها... وبلاد التّرك، وكثير من بلاد أوروبا التي تميل ويميل إليها الشّرق، وغالب جمهوريات أمريكا التي انتشرت فيها العروبة، واستفدت وأفدت، فيحقّ لمن مثل أدوار حياته هكذا، أن يتخلّى وينزوي لأنّه لم يبق له في قلبه مطمع لشيء من زخارف هذه الفانية، وإنّما لنا أهل وأولاد في هذه البلاد، فلا نريد لها الخراب، وهذا ما دعاني لما أقوم به لجنابكم من النّصح والإرشاد، بعد أن بيّنت لكم انزوائي وعدم اشتغالي بالسياسة من زمان.

ما نراه في بعض أسلافكم الأخيرين من استحواذ بعض الطّماعين، وأرباب القضايات وانخداعهم لهم، وعدم التّبصّر في أعمالهم حتّى غلّطوهم، فانقلبت حسناتهم سيّئات، وصلاحهم فسادا، فسوّدوا سمعتهم، وساءت ظنون النّاس فيهم، بل وفي من أوكل إليهم الأمور، وساء حال البلاد على كلّ حال، والوزر إذن يكون كلّه محمول على من ينخدع لترّهات المخادعين والمماذقين).

إلى أن يقول في هذه الرسالة الطويلة :

(... عالم الرّشوة يخفق في كلّ محلاّت السّلطة، والوظائف والقضايا تباع وتشتري كالسّلع البائرة بالأسواق، وسماسرة السّوء تغدو وتروح بكلّ حرّية كسماسرة البورصة.

... الأمن العام بأيدي (الكراكسة) [Les Corses] المتخرّجين من مدرسة البوليس التي بجبال (الكورس) أو من بعض الأعراب المتخرّجين من القهاوي والشّوارع...

... الأشغال العامّة هي العائمة في بحور أموال الميزانية، وتسمع جعجعة ولا ترى طحنا، تزمير وتبذير...

... الصحّة عبارة عن جسم ظاهره سليم، وباطنه عقيم، لا وقاية ولا علاج ولا معالجة الخ...

ويختم هذه الرسالة بقوله :

(... كلّ ما اشرت به عليكم بماذا تريد أن تصلحه ؟ وغدا تكون أنت المسؤول على ما ينتج عن تصاعد الرّوائح الكريهة من تلك القمم، اللهم إلاّ بمكنسة تنظّف أمامكم الطريق، وعلى أساس صحيح جديد، وإلاّ بضرب حديد على حديد لا يفيد، والنّظر لرأيكم السّديد).

حضرات السّادة والسيّدات.

إثر عمليّة جراحية أجريت عليه بمستشفى التّحرير بتونس وهو في السبعين من عمره، انتقل البشير الفورتي إلى دار الخلد والبقاء يوم الجمعة 15 جانفي 1954. ودفن بمقبرة الزّلاّج بتونس العاصمة.

وبعد وفاته قرّرت نقابة الصحافيين التونسيين إقامة ذكرى بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته، ووجّهت دعوة للعموم لحضورها يوم الجمعة 19 مارس 1954 في الساعة الرابعة ونصف بعد الزوال بنادي قدماء الصادقيّة بإشراف رئيس لجنة ذكرى الفورتي الشيخ محمد العربي الكبادي ولكن : تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن، إذ قد أصدرت الصحافة التونسيّة قبل الحفل بيوم أي في 18 مارس 1954، هذا البلاغ :

تحجير ذكرى الفورتي :

(تعتذر لجنة ذكرى فقيد الصحافة المرحوم الأستاذ البشير الفورتي إلى الأدباء والكتّاب والشعراء الذين استعدّوا للمشاركة في حفلة تأبينه المعينة ليوم 19 مارس الجاري، حيث أن السّلط المحليّة لم ترخّص في إقامة الذّكرى المشار إليها).

عن اللجنة : محمد الصالح المهيدي
(الصباح 18 مارس 1954)

وتشاء الأقدار، أن يتوفّق أعضاء اللجنة الثقافية بآجيم الخير لإقامة هذا الملتقى الذي يحمل اسم علم من أعلام جزيرة جربة الفيحاء، وهو المرحوم (الشيخ سليمان الجادوي) والذي هو أحد أصدقاء البشير الفورتي وذلك بعد أكثر من أربعين سنة مضت على وفاته، فتتاح الفرصة بهذه المناسبة لتخليد ذكراه، والتّعريف بآثاره ومزاياه.

وختاما، أفلا يحقّ لبلديّة آجيم، وبلديّة حومة السوق وبلديّة ميدون أن تخلّد ذكر هذا الرجل الوطني الصّميم والصحفيّ المناضل العظيم بتخصيص شارع أو ساحة باسمه؟

الجيلاني بن الحاج يحي
ملتقى الشيخ سليمان الجادوي (آجيم)
(الدّورة الثانية) ماي 1995

حسين المقدّم، رائد من روّاد الصحافيين الجربيّين بتونس في آخر القرن التاسع عشر (1)

1) المراجـــع

يعتبر المرحوم حسين المقدّم الذي ينتمي إلى عائلة جربيّة عريقة مستقرّة بالعاصمة منذ عهد بعيد، من روّاد الصحافيّين التونسيّين المغمورين. ذلك أن اسمه لم يرد ذكره في أيّ مرجع من المراجع القديمة التي أشارت إلى ظهور الصحافة التونسيّة في آخر القرن التاسع عشر. ويرجع فضل التعريف به لأوّل مرّة إلى صحافي آخر من أبناء جزيرة جربة هو المرحوم البشير الفورتي الذي خصّص له ترجمة مقتضبة صدرت له بعنوان «*من الصحافيّين المنسيّين*» في المجلّد السادس من المجلة الزيتونيّة المؤرخ في ديسمبر 1945.

ثم أشار إليه المرحوم عمر بن قفصيّة إشارة خاطفة في كتابه «*أضواء على الصحافة التونسيّة*» الصادر في سنة 1972. وأخيرا خصّص له الأستاذ محمد حمدان ترجمة ضافية في كتابه «*أعلام الإعلام*» الصادر عن مركز التوثيق القومي في سنة 1991، ويرجع إلى هذا الباحث المتخصّص في تاريخ الصحافة التونسيّة الفضل في إصلاح خطإ وقع فيه جلّ المهتمّين بهذا الموضوع إن لم نقل كلّهم، استنادا إلى المغفور له الشيخ محمد الفاضل بن عاشور الذي أكّد في

(1) نص المحاضرة التي ألقيت بالدورة الثانية للملتقى الثقافي والإعلامي (سليمان الجادوي) بأجيم (جربة) يومي 30 أفريل و 1 ماي 1995.

كتابه «*الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس*» (ص 65) أن جريدة «الحاضرة» لصاحبها علي بوشوشة هي أوّل جريدة غير رسميّة صدرت بتونس في 2 أوت 1888. والحال أن جريدة تونسيّة أخرى ناطقة باللغة العربية قد سبقتها في الظهور، وهي جريدة «نتائج الأخبار» التي أصدرها صاحبها حسين المقدّم في 6 جانفي 1888. وعلى هذا الأساس فهي تعتبر أوّل صحيفة تونسيّة غير رسميّة، ولو أنّها لم تعمّر طويلا. وسنحاول تسليط الأضواء على حياة المرحوم حسين المقدّم، ولاسيما على نشاطه الصحفيّ من سنة 1888 إلى سنة 1897، معتمدين بالخصوص على ما كتبه عنه كلّ من المرحوم البشير الفورتي والأستاذ محمد حمدان، وعلى ملفّه الشخصي المحفوظ في الأرشيف الوطني.

وقبل ذلك يجدر بنا التذكير بالظروف التاريخيّة التي حفّت بصدور أوّل جريدة تونسيّة غير رسميّة في مطلع سنة 1888 وهي جريدة «نتائج الأخبار».

2) الإطار التاريخي :

لقد كان من أوّل الأعمال التي قامت بها السلطة الفرنسيّة إثر استيلائها على تونس بمقتضى معاهدة قصر السعيد المبرمة في 12 ماي 1881، فصل الشيخ محمد السنوسي عن إدارة «الرائد التونسي»، وهي الجريدة الحكومية الثالثة في العالم العربي (1860)، بعد صحيفة «الوقائع» المصريّة (1828) وصحيفة «المبشّر» الجزائريّة (1847)، وقد تحوّلت جريدة «الرائد» بعد الاحتلال إلى جريدة رسميّة يقتصر نشاطها على نشر القوانين والأوامر والقرارات الحكوميّة، بالإضافة إلى الإعلانات الشرعية والتجاريّة، وبذلك فقدت البلاد التونسيّة صحافتها الوطنيّة التي كانت مزدهرة في عهد الاستقلال، ولاسيما في عهد الوزير المصلح خير الدين.

ولمّا عيّن على رأس الإقامة العامّة الفرنسيّة بتونس بول كامبون Paul Cambon (1882 – 1886) الذي يعتبر المؤسّس الحقيقي لنظام الحماية، حرص على إصدار قانون يضبط علاقة الصحافة غير الحكومية بالسلطة الاستعمارية، ويحدّد الشروط التي ينبغي أن تتوفّر في كلّ من يرغب في إصدار صحيفة بتونس، سواء كان من التونسيّين أو الأوروبيّين، ويرسم القواعد والتراتيب التي يتعيّن على كلّ صاحب جريدة احترامها، وكذلك العقوبات المسلّطة عليه إن هو أخلّ بها.

وبعد أخذ وردّ وافق الأمير علي باي (1882–1902) على إصدار الأمر العليّ المؤرّخ في 14 أكتوبر 1884 والضابط لقانون الصحافة (2).

ومن الأحكام الجائرة التي تضمّنها هذا القانون فرض ضمان مالي على كلّ صحيفة تصدر بتونس بأيّ لغة كانت، لتسديد الغرامات والتعويضات المحتملة في صورة الإخلال بأحكام قانون الصحافة.

وقد حدّدت قيمة ذلك الضمان بمبلغ 10.000 ريال، أي ما يعادل 6.000 فرنك بالنسبة إلى كلّ جريدة ذات نزعة سياسيّة ، و5.000 ريال أي ما يعادل 3.000 فرنك بالنسبة إلى كلّ جريدة غير سياسيّة. مع الملاحظ أن ثمن الجريدة كان يساوي عهدئذ 10 صنتيمات أي الجزء العاشر من المليم الواحد وأن معدّل السحب بالنسبة إلى كلّ صحيفة لا يتجاوز 500 نسخة.

كما ينصّ قانون الصحافة على التمييز بين الصّحف الأوروبيّة التي لا يجوز إصدارها إلاّ من قبل أشخاص

---

(2) انظر : محمد الصالح المهيدي، تاريخ الصحافة العربية وتطوّرها بالبلاد التونسية، (ص8) نشر معهد علي باش حانبة، تونس 1965 – وانظر أيضا : محمد حمدان، مدخل إلى تاريخ الصحافة في تونس (ص 27)، منشورات معهد الصحافة وعلوم الأخبار.

أوروبيّين، والصحف العربية التي لا يمكن أن يصدرها إلاّ أشخاص من ذوي الجنسيّة التونسيّة.

وقد عرقلت هذه الإجراءات ظهور أيّ صحيفة عربية لعجز التونسيّين عن تسديد الضمان المالي الباهظ الثمن، وأصبح الإعلام في تونس حكرا على الأوروبيّين من ذوي رؤوس الأموال.

ولمّا عيّن على رأس الإقامة العامّة الفرنسيّة ماسيكو Massicault (1886-1892)، وهو من قدماء الصحافيّين الفرنسيّين، معروف بأفكاره التحرّريّة، قرّر إلغاء الضمان المالي المفروض على الصحافة وعمل على إصدار الأمر العلي المؤرخ في 16 أوت 1887 والقاضي بإلغاء الفصل المتعلّق بالضمان المالي من قانون الصحافة. وبفضل ذلك بدأت تظهر الصحف العربيّة غير الرسميّة الواحدة تلو الأخرى.

- فصدرت في سنة 1888 : نتائج الأخبار والحاضرة والقصبة.

- وفي سنة 1890 أصدر الشيخ عبد الرحمان الصنادلي جريدة الزهرة.

- وفي سنة 1892 ظهرت جريدة المبشّر التونسي.

- وفي سنة 1893 : البصيرة والمنتظر.

- وفي آخر سنة 1895 أصدر الشيخ عبد العزيز الثعالبي، سبيل الرشاد.

- وأخيرا صدرت في سنة 1896 جريدة لسان الحقّ لصاحبها الشيخ محمّد بورقيبة.

والجدير بالملاحظة أن هذه الصّحف لم تعمّر طويلا، باستثناء الحاضرة التي دامت من سنة 1888 إلى سنة 1911، والزهرة التي استمرّت في الظهور حتى سنة

1957، كما أنّ من مجموع الصّحف التسع التي صدرت من سنة 1888 إلى سنة 1896، بلغ عدد الجرائد التي أصدرها حسين المقدّم أو تحصّل على امتيازها أربع صحف أي زهاء النصف، فمن هو هذا الشاب الذي أقدم في مثل ذلك الوقت المبكّر على اقتحام ميدان الإعلام وعمره لم يتجاوز عهدئذ الخمس وعشرين سنة ؟

3) نبذة من حياة حسين المقدّم : نشأته :

لم يشر البشير الفورتي في ترجمة حسين المقدم السالفة الذكر إلى تاريخ ميلاده، ولكن المعلومات الواردة في ملفّه المحفوظ بالأرشيف الوطني تفيد أنه مولود بمدينة تونس في سنة 1863، ويضيف الفورتي أنّه ينحدر من عائلة جربيّة شهيرة أصلها من ميدون، «استوطنت الحاضرة منذ سنين طويلة وما زالت معروفة بالفضل والوجاهة بين التونسيّين ولها علائق بالنسب مع كثير من العائلات التونسيّة».

أمّا عن ثقافته فيذكر البشير الفورتي أنه أخذ عن فحول عصره علوم العربيّة ونصيبا وافرا من العلوم العصريّة، واختصّ في التاريخ والجغرافيا. ويضيف عمر بن قفصة إلى هاتين المادّتين العلوم الطبيعيّة، مؤكّدا أن حسين المقدّم «كان من أساتذة الخلدونيّة الممتازين، (ومن المعلوم أن الجمعيّة الخلدونيّة تأسّست في سنة 1896)، وقد تخرّج عليه عدد كبير من الطلبة في العلوم الطبيعيّة».

والغالب على الظنّ - حسب رأينا - أن الرجل كان عصاميّا مثل الكثيرين من أبناء عصره، وقد تمكّن من اكتساب زاد لا بأس به من الثقافة الأساسيّة باللغتين العربيّة والفرنسيّة، بفضل شغفه بالمطالعة، وما تلقّاه من دروس خاصّة في العلوم العربيّة والتاريخ والجغرافيا واللّغة الفرنسيّة وبعض العلوم الصحيحة (كالرياضيات والعلوم

الطبيعيّة).

4) بداية نشاطه الصحافي : نتائج الأخبار :

لقد ولع حسين المقدّم بالصحافة منذ شبابه الباكر، فما إن صدر الأمر العلي القاضي بإلغاء الضمان المالي حتى بادر بتأسيس جريدته الأسبوعية الناطقة بالعربيّة، ألا وهي صحيفة «نتائج الأخبار» التي ظهر عددها الأوّل في 22 ربيع الثاني سنة 6/1305 جانفي 1888، وهي أوّل جريدة عربيّة صدرت بتونس بعد «الرائد التونسي»، وكانت اعدادها الأولى مطبوعة بخطّ اليد في مطبعة حجريّة، ثمّ طبعت الأعداد الموالية بالحروف المسبوكة في المطبعة العربيّة الفرنسيّة.

أما اتّجاه هذه الصحيفة فكان إسلاميّا إصلاحيّا، حيث اعتنت بنشر أخبار الخلافة العثمانيّة وسائر الممالك الإسلامية، واهتمّت بنشر التعليم، إذ كان شعارها الحديث النبوي الشريف «اطلب العلم من المهد إلى اللّحد»، وعملت على حثّ الشعب التونسي على نبذ الجمود والتواكل والسعي إلى التوفيق بين الحضارة العربية الإسلامية ومقتضيات العصر.

وكانت جريدة «نتائج الأخبار» لا تسحب من كلّ عدد سوى 300 نسخة، في حين سيبلغ عدد النسخ المسحوبة من جريدة «الحاضرة» 1000 نسخة في بعض الأحيان، أمّا الصحف العربية الأخرى التي ستظهر في تلك الفترة، فلا يتجاوز معدّل نسخها المسحوبة من كلّ عدد 500 نسخة، وهذا دليل على أن إشعاع الصحافة التونسية في آخر القرن التاسع عشر كان محدودا جدّا، حيث كانت تتّجه أساسا إلى النخبة المثقّفة.

وبعد حوالي خمسة أشهر من ظهور «نتائج الأخبار» أدرك صاحبها أنه لا يستطيع الاستمرار في تحمل نفقاتها

الباهظة بمفرده، فقرر تعطيلها من تلقاء نفسه إثر صدور العدد الخامس عشر في 12 ماي 1888.

وقد استخلص العبرة من فشل هذه التجربة الفردية رجال الحركة الإصلاحية الذين اعتزموا إنشاء جريدة ناطقة باسم حركتهم فاتفقوا على إنشاء شركة مساهمة لإصدار جريدة الحاضرة، وعهدوا بإدارتها إلى أحد خريجي المدرسة الصادقية البارزين وهو المرحوم علي بوشوشة وقد دامت هذه الجريدة – كما أسلفنا – أكثر من ثلاث وعشرين سنة، أي من شهر أوت 1888 إلى شهر نوفمبر 1911، لما أوقفت السلطة الاستعمارية إثر حوادث الزلاّج جميع الصحف التونسية، ما عدا جريدة «الزهرة» التي أصبحت في ذلك التاريخ صحيفة شبه رسميّة.

5) اشتراك حسين المقدّم مع بعض الصحافيّين الفرنسيّين :

لقد ظلّ حسين المقدّم عاطلا عن العمل مدّة ستة اشهر منذ ان فشل في مواصلة إصدار جريدته «نتائج الأخبار» وكنّا قد اشرنا إلى أن قانون الصحافة يمنع الأجانب من إصدار صحف باللغة العربية. ففكر عدد من الصحافيّين الفرنسيّين المقيمين بتونس في الالتجاء إلى بعض المثقفين التونسيّين لإصدار جرائد باللغة العربية باسمهم، مقابل مبالغ مالية معلومة. وكان حسين المقدّم من أوّل المتطوعين للقيام بهذه المهمّة. وبالفعل فقد قرّر الصحافي الفرنسي جاكينو دوازي (Jacquinot d'Oisy) صاحب جريدة «القصبة» الناطقة بالفرنسية، إصدار نشرة باللغة العربية موازية لجريدته. وصدر العدد الأول من هذه النشرة في 3 نوفمبر 1888 بإشراف شخص يدعى محمد الشريف، ثم عوّضه اعتبارا من العدد الرابع حسين المقدّم بوصفه صاحب الامتياز. وتميزت النشرة العربية من جريدة «القصبة» منذ

ظهورها بعدائها للجالية اليهودية، ودعوة «العرب» الى التحالف مع الفرنسيّين لمقاومة اليهود الذين وصفتهم «بالماكرين المخادعين» واعتبرتهم مجرّد «مجموعة من الاستغلاليين والمجرمين». وتوجّهت الجريدة في افتتاحية عددها الأول بهذا النداء الى القارئ التونسي :

«... ولولاك يا أخ العرب لما أمكن لليهود القرار بهذا القطر، فإنهم رجعوا أصحاب قوّة وثروة في هذا العصر، وإن الفرنسيّين عاجزون والحالة تلك عن إخراجهم من هذا البلد، فتنبه أيها الأخ الصديق واترك الغفلة التي أنت فيها، فإن الفرنسيّين إخوانك يريدون أن تكون سعيدا ويمدون لك يدهم اليمنى ويقولون لك إننا لمن الحامين لك والناصرين لجريدة القصبة، لأنها تدافع عنك من بأس اليهود أصحاب البغض والخديعة. فتجمّع مع إخوانك الفرنسيّين، وإن شاء الله نكون نحن الغالبين...».

ولا ينبغي أن نستغرب من شدّة هذه اللهجة إذا ما قارناها بما تميّزت به الصحف الاستعمارية - وبالخصوص جريدة «تونس الفرنسية» اليومية و«المعمّر الفرنسي الأسبوعية - من عنف في مهاجمة التونسيّين المسلمين واليهود، على حدّ سواء. فقد كان زعيم المعمرين دي كرنيار (1845 - 1917) يعتبر الأهالي المسلمين «مصابين بالعجز لا يرجى لهم شفاء من نقائصهم الموروثة» وكان يصف اليهود «بأنهم قوم جديرون بالاحتقار، محتالون، لا يؤمن جانبهم» (3) ومن ناحية أخرى كانت السلطة الاستعمارية تسعى دوما وأبدا الى بثّ الشقاق بين المسلمين واليهود.

ومهما يكن من أمر فقد قرّرت حكومة الحماية تعطيل النشرة العربية من جريدة «القصبة» إثر صدور العدد السابع في 4 ماي 1888، بتهمة الدعوة إلى التباغض بين الأجناس. وتبعا لذلك وجد حسين المقدّم نفسه مرّة أخرى

(3) شارل اندري جوليان، المعمّرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، ص41.

عاطلا عن العمل مدّة ثلاث سنوات ونصف السنة. ثمّ سنحت له الفرصة من جديد بالتعاون مع صحافي فرنسي آخر يدعى أوغست براكس (Auguste Prax) صاحب الجريدة الأسبوعية الناطقة بالفرنسية «Le Messager Tunisien» وشريكه غوغويي (Gauguyer) زعيم الحزب الجمهوري المعروف بأفكاره التحرّرية وتعاطفه مع التونسيّين، وهو قاض سابق بالمحكمة الفرنسية بتونس استقال من القضاء بسبب معارضته لسياسة حكومة الحماية، وتمكن الشريكان من إصدار نشرة عربية من جريدتهما بعنوان «المبشر التونسي» تحصّل حسين المقدّم على امتيازها. واتسمت هذه الجريدة التي ظهر عددها الأول في 28 أكتوبر 1892 بحدة لهجتها وتهجمها العنيف على المقيم العام الجديد روفيي Rouvier (1892-1894). وقد اتهمت الإدارة الفرنسية بالتنكر للرسالة الحضارية الملقاة على عاتق الجمهوريّة الفرنسيّة بتونس وعدم احترام معتقدات التونسيّين وتقاليدهم، وانتقدت بشدة انتزاع الأراضي من أيدي التونسيّين وبيعها للمعمرين الفرنسيّين بأبخس الأثمان.

وقد حظيت «المبشّر التونسي» بتأييد صديق القاضي المستقيل Gauguyer، الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي قام بدعاية لدى المثقفين التونسيين لتشجيع هذه الجريدة باعتبارها أوّل صحيفة فرنسية ناطقة بالعربية تناهض الاستعمار وتدافع عن التونسيّين.

وبالفعل فقد أراد صاحب الجريدة أن يبيّن لقرائه التونسيّين أن ممثلي فرنسا في تونس قد خانوا مبادئ الثورة الفرنسية : الحرية والمساواة والأخوة وأن يفضح السياسة الجائرة المطبقة على الأهالي على اختلاف أصنافهم. ولكنه اضطر اثر صدور العدد الثالث في 15 نوفمبر 1892 إلى تعطيل «المبشّر التونسي» من تلقاء نفسه تحت ضغوط المسؤولين الفرنسيّين وفي مقدمتهم الكاتب العام للحكومة

برنار روا Roy (1889-1910) واستمر في إصدار النشرة الفرنسية حتى مطلع سنة 1893، ثمّ قرّر التحول الى الجزائر خوفا من التتبعات العدليّة. فأصدر شريكه Gauguyer جريدة أخرى بالعربيّة سمّاها «المنتظر» (Le Messie)، وقد ظهر عددها الأول في 14 جوان 1893، وتحصّل على امتيازها المدعو محمد بولكباش، وساهم في تحريرها عدد من المثقفين التونسيّين نخصّ بالذكر منهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي ومحمد بورقيبة صاحب جريدة «لسان الحقّ» (1896). وكانت «المنتظر» بمثابة الامتداد لجريدة «المبشّر التونسي»، فعطّلتها حكومة الحماية بقرار مؤرخ في 3 سبتمبر 1893، وغادر Gauguyer البلاد التونسيّة نهائيّا.

6) تجربته الصحفيّة الأخيرة :

أمّا حسين المقدّم فقد تمكّن من الحصول على امتياز جريدة عربيّة جديدة تحمل عنوان «البصيرة» ويشرف على إدارتها شخصان لبنانيّان يقيمان في تونس، هما نجيب ملحمة وفرج اللّه نمور. وقد تميّزت هذه الجريدة التي ظهر عددها الأول في 14 أفريل 1893، باتجاهها الإسلامي وموالاتها للخلافة العثمانية. إذ تفيد التقارير الرسميّة أن «البصيرة» قد تمتّعت بإعانة مالية من قبل حكومة الباب العالي، وبفضل ذلك استطاعت الاستمرار في الصدور بانتظام طوال أربع سنوات، ولم تحتجب إلاّ في مطلع سنة 1897، إثر ظهور العدد 170 المؤرخ في 7 جانفي 1897 وذلك بسبب إعادة العمل بالضمان المالي المفروض من جديد على الصحف الصادرة بتونس، بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 2 جانفي 1897.

ذلك أن الحكومة الفرنسية قد رأت أنّ حريّة الصحافة المترتبة على إلغاء الضمان المالي مدّة عشر سنوات (1887-1897) قد أفضت إلى النيل من هيبة حكومة

الحماية لدى الأهالي من خلال ما تنشره بعض الصحف العربيّة من مقالات وتعاليق تقدح في تصرفات الإدارة الفرنسيّة وقراراتها. واعتبرت أن هذا الوضع من شأنه لو تمادى أن يهدّد المصالح الفرنسيّة العليا في تونس ولا يشجع المعمّرين على الاستقرار في هذه البلاد.

واستنتج المقيم العام الجديد روني ميّي René Millet (1894-1901) الذي عوّض روفيي Rouvier أن أحسن حلّ لوضع حدّ لهذه التجاوزات يتمثّل في إعادة العمل بالضمان المالي، فاقتنع الأمير علي باي بإصدار الأمر العلي المؤرخ في 2 جانفي 1897 القاضي بإخضاع الصحف من جديد للضمان المالي.

ويستغرب صدور مثل هذا القرار الجائر بإيعاز من المقيم العام ميّي المعروف بتعاطفه مع التونسيّين وإعجابه بالحضارة العربية الإسلامية، وهو الذي شجّع بعض المثقّفين التونسيّين من ذوي النزعة الإصلاحيّة على إنشاء الجمعيّة الخلدونيّة قبل صدور الأمر بشهر واحد (ديسمبر 1896)، وليس من المستبعد أن تكون الحكومة الفرنسيّة في باريس هي التي اتّخذت قرار إعادة العمل بالضمان المالي تحت تأثير المعمّرين وغلاة الاستعمار، وكلّفت ممثّلها بتونس بتطبيقه.

ومهما يكن من أمر فقد تعطّلت جميع الصحف العربيّة في سنة 1897، باستثناء جريدة «الحاضرة» التي تمكّن المشرفون على حظوظها من دفع الضمان المالي المطلوب وظلّت الصحيفة العربيّة الوحيدة في تونس حتى سنة 1904، ولم تصدر إلى حدّ ذلك التاريخ أيّ دوريّة تونسيّة جديدة، ما عدا التقويم الرسمي السنوي الذي أصدره محمّد بن الخوجة في سنة 1901 باسم «الرزنامة التونسية».

وخلال سنة 1904 صدر الأمر القاضي بإلغاء الضمان

المالي نهائيا في عهد المقيم العام ستيفان بيشون Stephen Pichon (1901-1906) الذي عوّض روني ميّي، فعادت الصحف التونسية للظهور وشهدت منذ ذلك التاريخ ازدهارا لم يسبق له مثيل.

7) التحاق حسين المقدّم بالبلاط الملكي :

أما حسين المقدّم فقد اعتزل النشاط الصحفي منذ احتجاب جريدة «البصيرة» في مطلع سنة 1897، فألحقه الأمير علي باي (1882-1902) بحاشيته وعيّنه ضابطا برتبة ملازم، ثمّ ارتقى بعد ذلك إلى رتبة يوزباشي (نقيب). وقد حظي برعاية الباي وتقدير ابنيه الأميرين مصطفى ومحمد الهادي اللّذين عرفا منذ شبابهما الباكر بمناهضتهما للنظام الاستعماري. ومن الجدير بالذكر أن التقارير الرسميّة الصادرة عن الإقامة العامّة قد اتّهمت مصطفى باي بمساعدة جريدة «المبشّر التونسي» ماليّا لتشجيعها على معارضة حكومة الحماية. كما أفادنا البشير الفورتي أن علي باي قد اقترح تكليف حسين المقدّم بتدريس الجغرافيا بجامع الزيتونة، لمّا قرّرت لجنة الإصلاح الأولى المجتمعة خلال سنة 1898 تلقين هذه المادة مع غيرها من العلوم العصرية لطلبة الجامع الأعظم. فعارض لويس ماشوال Louis Machuel هذا الاقتراح خشية انتهاز حسين المقدّم هذه الفرصة لغرس أفكاره الإصلاحية والوطنية في نفوس الطلبة.

ثمّ ازداد تأثيره وإشعاعه في القصر الملكي لمّا اعتلى العرش الأمير محمد الهادي باي الذي كانت تربطه به علاقات وثيقة، إثر وفاة والده علي باي في 11 جوان 1902. وقد قام الضابط حسين المقدّم في بلاط الأمير الجديد بنفس الدور الوطني الذي سيقوم به أمير الشعراء محمد الشاذلي خزنه دار في بلاط الأمير محمد الناصر باي من سنة 1906 إلى سنة 1922 حيث كلّفه محمد الهادي باي (1902-1906)

بتربية ابنيه محمّد الطاهر (توفّي في مارس 1941) ومحمّد البشير (توفّي في أفريل 1942)، فأشرف على تعليمهما وغرس فيهما حبّ الوطن والاعتزاز بالعروبة والإسلام. ومن سوء الحظّ لم يطل عهد الأمير محمد الهادي باي الذي أدركته المنيّة يوم 11 جوان 1906 إثر مرض عضال، وعمره لم يتجاوز الواحد والخمسين، وقد خلفه ابن عمّه الأمير محمد الناصر باي (1906-1922).

ولم نعثر في الوثائق المتوفّرة لدينا على أيّ أثر لنشاط حسين المقدّم بعد وفاة محمد الهادي باي. وقد اقتصر البشير الفورتي على الإشارة إلى أنه «مات في عنفوان الشباب». ومن المحتمل أن يكون قد التحق بجوار ربّه في أواخر عهد محمد الهادي باي أو أوائل عهد محمد الناصر باي.

وختم الفورتي ترجمة الفقيد بقوله : «لقد خلّف أثرا في نفوس عارفيه من رجال السراية والدراية والعلم والأدب والوطنية. يذكرون له ذكاءه وإقدامه وحزمه ونشاطه ووطنيّته ودماثة أخلاقه وتعفّفه وكرمه».

تلك هي بعض الخصال الحميدة التي كان يتحلى بها المرحوم حسين المقدّم، ذلك العلم المغمور من أعلام النهضة الفكريّة الحديثة في تونس.

حمّادي السّاحلي
ملتقى الشيخ سليمان الجادوي
(الدّورة الثانية ماي 1995).

المحتوى

الموضوع	الصفحة
تقديم	3
أبو العباس أحمد الصقلّي قائد بحري من جزيرة جربة ..... أمين توفيق الطيبي	5
أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرّادي .. سعيد بن يوسف الباروني	14
الشيخ عمر بن جميع عصره وحياته وكتابه .. الصادق بن مرزوق	40
لمحة موجزة حول صالح شيبوب الجربي ..... عبد الحكيم القفصي	51
الشيخ سعيد بن تعاريت وفكره الاسلامي ..... علي ابن تعاريت	66
الشيخ سليمان الجادوي ..... الجيلاني بن الحاج يحيى ..	74
مساهمة الشيخ سليمان الجادوي في بعث الصحافة الهزلية التونسية من خلال جريدته «أبو نواس» ..... حمّادي الساحلي	86
كفاح الشيخ سليمان الجادوي من خلال منتخبات «مرشد الأمّة» .. محمد اليعلاوي	98
محمد فريد بن غازي ..... المنجي فرحات	106
محمد بدرة ..... الجيلاني بن الحاج يحيى	116
البشير التّليلي حياته وآثاره (1935-1986) .. حمّادي السّاحلي	130
مشاركة الأستاذ صلاح الدين التلاتلي في الصحافة الوطنية قبل الاستقلال ..... محمد اليعلاوي	136
البشير الفورتي من خلال آثاره ..... الجيلاني بن الحاج يحيى	150
حسين المقدم، رائد من روّاد الصحافيين الجربيّين بتونس في آخر القرن التاسع عشر ..... حمّادي السّاحلي	174

طبع الشركة التونسيّة لفنون الرسم